عيون المعاصرة

محمود المسعدي

حدّث أبو هريرة قال ...



تقديم
توفيق بكار

دار الجنوب للنشر - تونس

محمود المسعدي

حدّث أبو هريرة قال ...

أبو هريرة خطر على اطمئنانك .

يستنطقك - بلا رحمة - عن معناك بما يسلطه عليه من أسئلة قاسية تمس بأصول الحياة : الولادة والموت والدين والسياسة والحب فيرغمك مهما كان اعتقادك على معاودة فهمك لوجودك والتثبت في صحة علائقك بنفسك وبالمجتمع وبالله وبالكون . وليس همه أن يقنعك برؤيته بل أن يردك الى نفسك عسى أن تضطلع واعيا بمصيرك فتكون انسانا .

من أقوى نصوص أدبنا المعاصر، تجربة فريدة في الكتابة .

محمود المسعدي : من كبار الأدباء العرب في العصر الحديث ورأس مدرسة فريدة في الكتابة . ولد بتازركة سنة ١٩١١ . من خريجي المدرسة الصادقية وجامعة الصوربون . مبرز في اللغة والآداب العربية . أشرف فيما بين ١٩٤٣ و ١٩٤٧ على مجلة « المباحث » . تقلد مسؤوليات عدة في الميدانين الوطني والنقابي . تولى بعد الاستقلال وزارة التربية الوطنية ثم وزارة الثقافة بتونس . أشهر مؤلفاته : السد ، مولد النسيان .



رقم الناشر 02 0006
الثمن 3.750 د.ت

79، نهج فلسطين ــ تونس
الطبعة الثالثة 1989

تقديم السلسلة

أن نتجذر في العصر ذلك ما يأمرنا به واقعنا العسير . واننا ما لم نستجب لهذا الامر فنتشبع بروح الحاضر لمشاولون سياسيا وحضاريا عجز أمام التحديات القاتلة ـ وليس مآلنا أن نكون مطمعا للاستعمار الجديد يفترسنا بضراوته التكنولوجية أو متحفا اثنولوجيا لامتاع متذوقي العتيق أو لوحة فلكلورية لتسلية السواح . فلا بد أن نعدل حياتنا على ساعة العصر حتى نخرج من سلبية المفعول به ـتاريخيا ـ الى ايجابية الفاعل ونثبت حضورنا دوليا وعلى حد السواء في مراكز النفوذ ومواطن الخلق ، خلق الاشياء والقيم والعلوم والفنون . فهو شرط وجودنا الاكمل في هذا العالم الذي نحن منه ولا نملك اليوم أن نؤثر في سيره بملء وزننا . فلنخترع أنفسنا من جديد ، وإنه ان اقتضى ذلك منا أن نخلع عنا الرجل القديم فلا يقتضي أن ننسلخ من هوّيتنا لنغترب في الآخرين . فالحداثة ان نستوعب أسباب التقدم في كافة المجالات حتى ننمّي مجتمعاتنا تنمية شاملة ونفجر فيها طاقات الخلق المدفونة تحت ركام الفقر والظلم والعدوان ، بحيث نصبح قادرين على المساهمة الناشطة ـ بطرافة شخصيتنا ـ في صياغة مصير العالم .

هذا الاهتمام الملح هو الذي أملى على دار الجنوب للنشر أن تقدم بفتوتها على اصدار سلسلة خاصة تعنى بنصوص أدبنا الحديث وتحمل اسم « **عيون المعاصرة** » بكل ما في « العيون » من الايحاءات

فعلى مدى قرن من الوجود ـ انطلاقا من أوائل النهضة الى اليوم ـ قام الادب العربي الحديث ـ نصا بعد نص ـ صرحا من الكلام نحته الذهن العربي على تعاقب الاجيال من تطلعاتنا وتراجعاتنا وانجازاتنا وخيباتنا وثباتنا وحيرتنا وصوابنا وأخطائنا في مواجهة المصير منذ أن أفقنا بين الأوجاع على عنف التاريخ . وهو أدب يخبرنا عن نفسنا في مسيرتنا المتعرجة خلال الزمن الحديث ومتى عرفنا كيف نحكم معه الحوار استطعنا أن نستمد منه ـ جدليا ـ ما به نواصل بأكثر استبصار وجدوى طريقنا نحو مجتمع متقدم .

وستهتم « **عيون المعاصرة** » بما اشتهر واستقر من تآليف كبار ادبائنا وبما هو جديد من عطاء الحاضر المتدفق فتقدم لكل نص تنشره بمقدمة من انشاء خيرة نقادنا ـ مغربا ومشرقا ـ تكشف أبعاده وتوظفه ـ قوة فعالة ـ في صراعاتنا الراهنة من أجل وجود أفضل .

و « **عيون المعاصرة** » آفاق طليقة لا يحدها حد اذ هي مؤمنة بحرية الخلق والتعبير متفتحة على رياح الفكر العربي اين كان المهب ولا تشترط في الانتاج الا أن يكون من صميم الابداع وفي صميم القضايا يثري شخصيتنا ويدفع الى الامام . فتلك عقديتها وهو التزامها الوحيد وستفي .

محمد المصمودي — **توفيق بكار**

الإهداء

إلى أبي رحمه الله ،

الذي رتّلت معه صباي على أنغام القرآن وترجيع الحديث ، مما لم أكن أفهمه طفلاً ولكنني صُغتُ من إيقاعه منذ الصغر لحن حياة ـ وربّاني على أن الوجود الكريم مغامرة طهارة ، جزاؤها طمأنينة النفس الراضية في عالم أسمى فأسمى ـ وفي أثناء ذلك كلّه علّمني بإيمانه سبيل إيماني .

م . م

مُقدّمة الكاتب

هذا كتابٌ كتبْته منذ أحقاب ، حين كنتُ أرُوم أن افتحَ لي مسلكاً إلى كياني الإنسانيّ ، وأقضيَ حَجّاً إلى موطني المفقود : وفاءُ حنينٌ إلى الذاتِ الجوْهَرِ الفَرْد ، وتوليدٌ للعِشرة من معدن الوحشة ، وإشهادٌ على أنّ تاج الكيان مركّبٌ من العشق والفناء .

وقد طرحْته منذ ذلك العهد طرْحَ الحيّة جلدَها . ثم عدتُ اليه بعد ان شاعَتْ منّي في ابعاد العمر كلُّ مُهْجة ، فإذا هو يحدّثني بحديثه اذ ذاك ، صدًى منّي

اليّ . ككل حيٍّ لا يزال : الحياة كوْنٌ واسْتِحالةٌ ومأساةٌ . فإذا هي ارتدّت ظاهرةً وقراراً ورضى ، فهي الخسرانُ ولعنةٌ على الزائفين .

ولئنْ انا اخرجته اليوم إلى الناس ، وأحييْته كما كان أحياني ، فعلى أملِ أنْ يكون لدى غيري - ان استطاع - ما به تدرّبْتُ على أن أكون .

وإن كلّ كيانٍ لجَهْدٌ وكسْبٌ منحوت .

تونس - خريف 1972

م. م.

تمهيدٌ

إلى القارئ:

الآن ، وقد انتهيْتُ وطرحْتُ بهذه الصحائف الضعيفة الناحلة اليك - انظر فلا ارى غير العدم ...

ستذهب هاته الصحائف فتمضي وتَمّحى . فهي انفاسي قد ذهَبَتْ ولها ريحُ ما يبلى ويأكله الدُّود . كجميع الذين كتبوا من قبلُ ، يظُنّون أنّهم خلّدوا وأماتوا الموت . وما خُلِّدوا . وانّما هي آلامُ الانسان يترامى صداها من قرْنٍ إلى قرن ومن جيلٍ إلى جيل ،

كما يتردَّد صدى الرعد بين الجبال ، فلا يكون للرعد حياة او ترنّ الصخور . وليس لكلّ رعْدٍ صخورٌ تردّده . فقد ينفلق بقاعٍ صَفْصَفٍ فلا يصيب من الدوام الا طرْفةَ العين .

وإن هذا الكتاب لكالصوت اوكالصيحة في وادٍ به حاجةٌ الى ما يردّد صداه ويُسْري فيه خلجةَ الحياة . فقد كتبْتُ أكثره في الليل جعلتُه دعائي للصباح ؛ واستوْقَيْتُه ولمّا يتنفَّسِ الفجر .

وليس لطالب ان يطلب فيه جديدًا من المعاني طريفا ، لانه لا يكون عندي أطرف ممّا ينشأ في نفس القارئ عند مطالعته من الافكار والمشاعر . فلتدخل اليه إذَنْ ايها القارئ بأمرك الباطن ولتنشره عليه ؛ وإلاّ فلتُعرِضْ عنه ولتدَعْهُ إلى غُبار المكاتب والنسيان . هو دعوةٌ الى احياء نارك . فان لم يُحْيِهَا من رمادٍ ؛ فقد مات وبطل همُّك منه .

واذا كان لا بُدَّ له من جدّةٍ وطرافة لتُقْبِل عليه ؛ فاعلَمْ أنّه ليس في نظري أطرفُ من جدَّة القديم : كنفسك وأحلامك وأسَاك وحَيْرتك . ولعل أجدَّ ما فيه بعْدَ قصّتك الباطنة ، روحُ ابي هريرة ؛ لانها تنْتسب إلى اقدم الاقدمين وتودُّ أن تنتسِبَ اليك . ولعله ليس شان الكاتب الجدَّة والطرافة ... وانما هو ان يفْترِقَ على يَدِهِ الجوْهرُ عن العَرَض العارض .

وقد يحتاج أبو هريرة عندك إلى التعريف ولسْتُ بمعرِّفه لك (١). وإنما لك من شأنه ما قد يقع بنفسك عند انتهائك من هذاالكتاب .ولتذكر بيْتَ أبي العتاهية :

وأيُّ امـرئٍ في غـايةٍ ليس نفسُــــه
إلى غــايــةٍ اخرى سواهَا تَطلَّـع

---

(١) في رواية أنّ أبا هريرة ثلاثة : أوّلهم الصحابي رضي الله عنه وثانيهم النحوي وثالثهم هذا .

وقولَ « هُولدِرْلاين » : « أتعلَمُ على مَ حزنك ؟ إنَّه ليس على شيءٍ مفقودٍ فقدْتَه من زمنٍ مُعيَّنٍ يمكنك أن تقول متى كان عندك ومتى ذهب . إنما هو على شيءٍ لا يزال حيًّا قائماً فيك . هو عهدٌ أسْمى من عهدك الحاضر تطلُّبه ، هو عالَمٌ اجمل من عالمك هذا ... »

ولتذكر نُـذُرَ « سفر التكوين » : « لا تأكُلْ من الشجرة الحرام . فانَّك إن فعلْتَ لذائق الموت » .

وشأنَ « نيتشه » يقول : « اذا ذهب صدقي فقد عَميت . فإذا اردتُ المعرفةَ فقد أردتُ الصدقَ ، اعنى الشدَّةَ والتضييقَ على نفسي والقساوةَ لا تلين » .

° °

اذا قرأْتَ هذا الكتابَ فله عليك - في مسيرتك اليك - ان تكون قاسياً غيرَ رحيم .

أوجاع الإفاقة على التاريخ العاصف

« على أمل ان يكون لرنات مغامرة ابي هريرة في نفسك الكريمة صدى كريم » .

اهداء الكاتب نسخة من قصته الى صاحب التقديم

لا اظن قريحتنا الروائية خلقت أقوى ولا أبعث على الدهش من شخصية أبي هريرة . كائن شديد الغرابة يمتزج فيه الصوفي بالمغامر ، يهيم باللانهاية كعشاق الحق قديما وله وجدهم ، جرئ يحب المجازفة كهواة المخاطر من هذا العصر . قرر أن يضطلع بمصيره في كامل المسؤولية ، أن يحيا صاحيا مفتوح العينين شديدا على ذاته وعلى غيره لا يموه شيئا على نفسه ولا يساوم على ما يعتقده الحقيقة ولا يتسامح فيه مع أحد. فهو دائم الحيرة لا يني عن التطواح كأنما يقلقه في كل لحظة الى حد الذعر أن يخطئ الوجود فيفوته. يعيش في دوامة السؤال لا يدع أمرا الا استفهم عنه ولا تجربة الا زج نفسه فيها يشك ويفحص ويختبر. متطرف في كل شئ في الافكار والعواطف والمواقف يهوى التناهي فإذا طرق سبيلا مضى فيه لا يقف الى ان يبلغ الغاية. تفتنه الحياة ويفجعه الموت على السواء الى الجنون وهو مشدود اليهما كالمعذب تكاد عراه تنفصم من شدة التوتر. يحب أن يتحدى وتغريه العظمة ، يريد أن

يكون انسانا ، أن يكون الانسان ولا يخلو من عجب قد يصل الى التعنجه . شخصية عتيدة وبلا مراء صورة مذهلة من قوة الابداع . ورغم أنه طيف خيال ونحت كلام ، خرافة كبيرة فهو يعيش بيننا كأنه من الاحياء جزءا من واقعنا . هكذا الادب اذا كان خلاقا يصير قوة تتحرك في الوجود فاعلة . ولا تملك متى عرفته - في الاعماق لا على السطح - ألا تتفاعل معه . فهو يجذبك اليه ويستنطقك بلا هوادة عن معناك فيرغمك مهما كان اعتقادك على معاودة فهمك لوجودك والتثبت في صحة علاقتك بنفسك وبالمجتمع وبالله وبالكون . ولا يهم بعد ذلك إن لم ترضك أجوبته -وله على الاسئلة أجوبة. فليس غرضه ان يفرض عليك رؤيته فيجعلك اليه بل ان يردك الى نفسك « فيحيي نارك ». ومذ عرفته - شخصيا - وأنا معه- في جدل صعب عميق لانه يمس بجذور الاشياء . يسائلني من موقعه الفكري الخاص عن الحياة والموت والحب والدين والسياسة وأجاوبه او العكس بالعكس من موقعي الفكري الخاص بلا محاباة على قدر صراحته صدقا بصدق وكلانا - ككل الناس - جالس على جانب ما من فوهة بركان واحد . فوجدتنا نلتقي في صميم مذهب الانسانية نعظم معا هذا « الذي حارت البرية فيه » وهو « حيوان مستحدث من جماد » ونحمله كامل المسؤولية ثم قد نفترق في ما وراء ذلك من المدلولات والابعاد . هو روح جامحة الى المطلق مفتونة بالابد وبصر ضارب في أعماق « الغيوب » وآفاقي أنا التاريخ وهو أوساع لا تحد وأبعاد لا تدرك وليس وراء التاريخ الا التاريخ ، ويؤمن بأنه « جوهر فرد » الى حد الوحشة المضنية حتى وهو

بين الناس وأعتقد أني « مفرد بصيغة الجمع » أو- وليسمح لي أدونيس بقلب عبارته « جمع في صيغة مفرد » الى حد الاكتظاظ بل الاختناق أحيانا ، وحيث أرى ملحمة اجتماعية هائلة تغير كل شئ وتجدد معنى الحياة بلا نهاية يرى مأساة فردية مزعجة وقصة معادة مذ كان الانسان وتختم حتما بالموت . وليس الذي بيننا مع ذلك حوارا باطلا وانما هو تبادل حقيقي ومثر. كم نسينا في مجتمعاتنا العربية أن الحوار لا يكون الا بين اثنين (على الاقل) ومع التباين حتى وان بلغ حد التناقض . فلا انصات للآخر ولا اعتراف له بحقه في الاختلاف ولا بحريته في ان يكون هو لا غيره فكرا وعملا بل قسر بالسجن أو التشريد والتعذيب أو القتل على الدخول في الصف والامتثال « للحقيقة » السلطانية . خسرنا كثيرا وما زلنا نخسر بهذا السلوك المتوحش . فهّمني أبو هريرة رؤيته للوجود ولعلني أفهمه ما رؤيتي وكشف لي عن نَوَاحٍ من الحياة كنت غافلا عنها . بل أكثر من هذا أحرجني مرارا باسئلة دقيقة لا تقوى عليها الردود الجاهزة ولا الشعارات الشائعة فاضطرني الى التعمق في مبادئي لاستنباط أجوبة جديدة من شأنها أن تقنعني قبل أن تقنع غيري. فليس من أقل مزاياه عليّ - بلا سخرية - أني به صرت أتقدم في فهم مذهبي وفهم الحياة .

وهذه قصته كما انفعلت بها نفسي من خلال هذا الحوار الطويل .

* *

بدأ كل شئ ذات فجر بـ « بعث أول » انفتحت فيه نفس أبي هريرة على لذة الوجود وانتهى كل شئ ذات غروب بـ « بعث آخر » عبر معه أبو هريرة حدود الدنيا الى « شواطئ الازل » . وبين هذا الفجر وذلك الغروب رحلة حياة امتدت به من مطلع العمر الى أن جاوز الاربعين و « آن الرشد » رحلة طويلة وراء نفسه ومغامرة تلو مغامرة اقتحم فيها الوجود من شتى الثنايا ليختبر أبعاد بشريته وتوجت . في جو من الخوارق . بتجلي « الحق » له في قمة جبل شاهق ففني فيه ولم تبق منه الا آثار من الدم على الصخر تشهد بمصيره الانساني وأخبار منثورة يسردها الرواة .

كان في أول أمره يعيش بمقتضى العادة كسائر أهل « مكة » . ومكة هنا كناية عن المجتمع الاسلامي في عهد ركوده التاريخي . يتسلم الحياة من السلف كما هي ولا يتساءل عن مبرراتها ، متدينا يؤدي الصلوات في أوقاتها ، متزوجا على السنة ، متخلقا بالقيم الموروثة فلا يرى في الجسم الا قبحا ينبغي أن يستره وباختصار كان مثال المسلم التقليدي الى أن جاءه ذات يوم صديق له . كتمت هويته كأنه من دعاة بعض المذاهب السرية . فدله خفية على ما كان يجهل من أشكال الاحتفال بالحياة واذا هو يفجأ في خلاء الصحراء ساعة صلاة الفجر بمشهد مدهش كأنه من عالم الحلم : على رأس كثيب في مستوى الافق تتفجر شهوة الوجود أنغاما ورقصا موقعا من جسدين عاريين ، فتى وفتاة « في زي آدم وحواء » يقيمانها صلاة أخرى وثنية طاربة للشمس الاله وهي تطلع على الكون وترسل في الموجودات من فيض نورها وحرارتها روح الحياة « سلام على الروح يسري على يسر » ومن ورائها

واحة « سرور » ضائعة بين الرمال مثل الجنة تجري من تحتها الانهار . ومن جسم الفتاة وهو يتبرج في طلاقة عريه ويعانق بهجة الكون في جذل ذائبا في النور أو الهواء أو الرمال يتلقى أبو هريرة « دعوة الدنيا » رائعة وسط « هذه الاشجار وهذا الماء وهذا النور وهذا الفضاء وهذا الخلاء » . فلا يتردد الا قليلا ويستجيب فيترك مكة والزوجة والصلاة وقد « بعث » من بين « الاموات » الى الفردوس ، ليس فردوس السماء الذي ما فتئ يحلم به حتى كاد يغيب فيه كليا عن واقعه بل فردوس الارض وقد مات عنه حتى أحياه بنفحة من طيبه . من جنة موعودة الى جنة موجودة مدى « البعث » مجازيا ومداه دلاليا انقلاب في التفكير من لا هوتية مغرقة ترتقي بكل الحياة الى الآخرة . « لهم الدنيا ولنا الآخرة » . الى انسانية معتدلة تنزل بكل الحياة الى الدنيا حتى تعمل لها « كأنها تعيش ابدا » . على أن « هبوط » أبي هريرة من التهويم في السماء الى مباشرة الارض . وسيحاول في حديث « الغيبة » عكسيا أن يعود الى السماء . كان مثقلا بشهوانية عارمة تحيل . خافيا . الى مذهب بعينه . فالفردوس الذي مثل لابي هريرة بغتة كالذي يوعد به المتقون في الظاهر ولكن نعيمه مستمد من وحدة الوجود واباحة أهل الفطرة ووثنية الاولين : خلاصة الفلسفة الطبيعية من أسطورة آدم وعصره الذهبي الى « اندري جيد » و « أطعمته الارضية » مرورا بمذهب « ديونيزوس » وتصوف ابن عربي وآراء « روسو » . فكأنما « بعادت الروح » الى أبي هريرة بعودته الى « الطبيعة الام » يتخذ معنى الحياة من زخر مائدتها . فهي التي بعثته من رميم الرجل القديم الذي كأنه فهبّ

انسانا جديدا يسعى بكل حواسه الى ملاقاة الكون للعبّ من نبع الوجود ونكهته

واقتح قواك للوجود وخله لليم للامواج للديجـــــور
حتى تعانقه الحياة ويرتـوي من ثغرها المتأجج المسجور

« ظمئت الى النور فوق الغصون ! ظمئت الى الظل تحت الشجر ! »
« ظمئت الى الكون ! فأين الوجود وأني أرى العالم المنتظر ؟ »
« هو الكون خلف سبات الجمود وفي أفق اليقظات الكبر »

صوت يجاوب صوتا كالصدى يتردد في ارجاء البيئة التونسية بين الحربين معبرا عن تلهف جيل كامل الى الحضور من جديد في دنيا « غبنا » عنها طويلا وهو من مظاهر الافاقة على التاريخ في تلك الفترة الانعراجية التي انشقت فيها بعد مخاض عميق القوى الاجتماعية الحديثة عن هياكل القديم نهائيا وانطلقت في حركة متعاظمة تبدل بأفكارها الجديدة وجه الحياة . « فالبعث » ـ آخر الامر ـ صورة مجازية تترجم في ذلك الوقت عن قفزة الطلائع المثقفة من الماضي الى الحاضر ورمزها هنا أبو هريرة وقد كان ـ وهو سمي الصحابي المشهور ـ اسما راسخا في القدم ينوء بعبء التقاليد فصار عنوان المغامرة في العصر والسعي الجسور الى اعادة بناء الحياة. هكذا تشف كثافة الرمز عن واقع المجتمع وتنغرس الكتابة رغم تباعدها في أرض التاريخ .

وبيدأ أبو هريرة رحلته وهو في عنفوان الشباب بالغوص في أعماق الحس وقد تفتق فيه على « متع الدنيا » : الطعام وطيبه والخمر وسكرتها ولذة الهوى و . . . نشوة السقم ـ فحتى « العلة » صارت ـ في ما عانى ـ

من « محييات الحياة » وحال البلوغ الى النصف الآخر من « متاع الدنيا » ويغرب أبو هريرة في تعاطيها ويتطرف همه أن يذهب فيها الى أبعد حد ولا يبالي ان شذ عن الاخلاق المتعارفة بل هو يتعمد تحديها بعنف اذ انقلب على التزمت تمردا « تواسيا » يستحل ما تنهى عنه تقاليد « الحشمة » باسم « حقوق الطبيعة » وشرعية الرغائب رغائب جيل كان يشعر ـ حسب عبارة القصاص محمد العريبي في يومياته وهو معاصر للمسعدي ـ « بجوع كافر الى الحب » . فهذه القصة هي فيما أعرف أول نص أدبي يطرح بمثل هذه القوة وهذا العمق الفلسفي قضية الجسد في المجتمع العربي الحديث . وقد اجتمعت لابي هريرة كل هذه المتع على اختلاف ألوانها لدى قينة تجتن الرجال بحسنها الغريب وشرود روحها ريحانة المرأة الزهرة ولكنها زهرة من لهب « كأن في عينيها نارا وبفيها ماء حميما » . شعلة منبعثة من سعير كبير لا ينطفئ موقده لانه موقد الحياة ذاتها وهو الجنس والاله ـ في المنطق الاسطوري للنص ـ « أساف ونائلة » شعار الحب العاصي . وورثت ريحانة سرهما عن قومها وكانوا من أشياعهما قبل أن يذهب بهم الحريق . أول ما رأى أبو هريرة هذه المرأة أدرك من هي ف «عمّدها» خمرا ثم تحت شجرة واقعها بين قهقهات السكارى في ضمة وحدت بينهما جسدا وروحا ودشنت صحبة ساخنة دامت ثلاث سنين. أذاقته ريحانة أفانين اللذة وأدخلته في عبادة الصنمين وكانت تقام لهما في ضيعته ليلا شعائر كشعائر المجوس على نار تتقد « ذكرا به لوعة الصادي » وحل الالسنة الحمراء الطالعة أشباح المريدين فتية وفتيات يرقصون كالشياطين أزواجا وهم عراة على

جنون الدفوف والمزاهر وريحانة « سادنة المعبد » تنشدهم من « كتاب » معبوديها :

أساف ونائلة … أوقدا جذواتي
هذه الدنيا اناث … كلها تدعو الذكور
يسمع منها لهاث … بدؤه بدء الدهر......

« تخميرة » وثنية أو « ربوخ » « اباحي تعظيما » للجذوة واذكاء لها حتى تشتعل نارا على نار . يتلاعب الكاتب بكل معاني النار من الجنس الى الوثن الى جهنم وابليسها سلسلة واحدة من الدلالات . وكأن بشارا وهو من الشعراء الموحين الى الكاتب يوسوس من خلف السطور هنا :

ابليس خير من ابيكم آدم … فتبصروا يا معشر الفجار
النار عنصره وآدم طينة … والطين لا يسمو سمو النار

ويشارك أبو هريرة بهذا الحفل الجاهلي في اضرام أوار الجسد ليروض نفسه في نوع من « الجهاد » الصوفي على تملك زمامة وهو في أقصى التهابه لانه صار لا يحب السير الا « والهاوية » يطل على القاع ويظل صاحيا لا يأخذه الدوار يمنعه من الدهشة شئ ما . أجل ثمة قلق خفي بدأ يداخل لذته حتى في أشد حميتها وهو شعور لا يزال خافتا بدبيب الفناء في كيانه مع مرور الزمان فيحاول أن ينفيه من نفسه بالتحدي الساخر كما يبدو من علاقته الغريبة بمقبرة المدينة وتقع تحت شرفة بيته . فقد اتخذها له ولصاحبه مجلس أنس وفراش هوى . على أديمها

يروق له أن يتعاطى حبيبه كأنه اذ يهصرها على « رفات تلك العباد » يقهر الموت فيطمئن ويبلغ قمته الوجود . هكذا بسورات الهوى ظن أن قد تداوى من نخر الداء القاتل كما حسبت ريحانة أنها بسحر جمالها قد شدته من حواسه اليها في خلد جنتها - أو جحيمها - « تأكله ويأكلها وتفنيه ويفنيها » وكلاهما للآخر آفاق دنياه الواسعة . ولكن الشعور بالموت احتد ولم يعد أبو هريرة يرى في المرأة وان كانت فتة ريحانة الا فردوسا كاذبا ولا في الهوى على عنفوانه الا سراب أبد . أورثته وليمة الجسد « جوعا » في الروح يفغر فيه كهوة العدم التي يحس أنه يتدلى فوقها . ويشتد به السؤال : أي خير في « مائدة » يقدم للانسان حتى اذا شرهت اليها نفسه انتزع منها عنوة الى التلف ؟ وهل ريحانة نفسها الا « كالزهرة على القبر » جمال منغرس في تربة الفناء أو كالشمس لا يشرق نورها الا لينطفئ ويغيب ؟ أصبح الموت يسير نشوته ويشيع في الكائنات والاشياء حوله طعم البلى حتى تعفنت في فمه اللذة و « شاخ النور » في عينه بعد اللذي وجد « من جلدة العمر » ولما يتجاوز الثامنة والعشرين . ما أسرع ما شفعت « ارادة الحياة » باحساس الموت حتى صرنا لا نعرف أيعيش أبو هريرة حياته في الموت أم موته في الحياة ؟ كيف انقلبت الافاقة على التاريخ كحركة تدفع الى الوجود تفجعا من الزمان كسيل يجرف الى العدم ؟ ولِمَ ارتدت الملحمة الاجتماعية في الواقع مأساة فردية من النص ؟ بين القصة وسياقها توتر شديد ستكشف بقية المغامرات عن أسبابها . على أن وعي الموت لدى أبي هريرة سيصبح من الآن أقوى وازع للحياة يلقي عليها ظلاله وفي

الوقت نفسه يكسبها عظمة .

واذ أيقن أبو هريرة ان سدرة الحواس أو هي من أن تنسيه فاجعته لم ير بدا من استئناف الرحيل بحثا عن معنى آخر للحياة يراه أخلق بانسانيته وأدحض للموت . فليس من شيمه كشخص مأسوي يرفض خداع نفسه - وعلى عكس المثل المعروف في كليلة ودمنة - أن يظل منشغلا بـ « العسل » و « التنين » في قعر « البئر » يتربص به فما مفتوحا لالتهامه . ويعمد الى علائقه بحبيبه فيجتثها من العرق وهي لا تزال حية فيه ثابتة فيذهب عنها ويظل منها الى آخر أيامه « أعجز الناس عن الحب » . أما هي فلم تمح ذكراه من ذهنها الى أن شاخت فقد كان بصرها بالحياة حتى صار لها كل شئ بعده « وضاحا ». المسعدي حريص في ما يبدو على أن يلعب بطله مع النساء خاصة دور المرآة تجلو لهن صورهن وصور الاشياء حولهن على حقيقتها . فقد « وضع » أبو هريرة ريحانة كما سيضع بعدها ظلمة . وما هذه الا صورة معكوسة من تلك . فولدت كلتاهما للدنيا من جديد . بعثهما كما بعث وبقوة عينه التي « كأنها تنشئ مرئيها انشاء » مهما يكن من خوارقه مع ريحانة فانها لا تستطيع أن تخفي أن علاقته بها - بالمرأة فيها - لا تخرج في النهاية عن دائرة تصور ما رجالي شائع . طبعا ليست ريحانة من النساء اللائي دجنهن المجتمع المحافظ بشدة الكوابت كالزوجة المسكينة التي لم تظهر في القصة الا لتأخذها الصاعقة . وكان أبو هريرة يحنو عليها برقة ولكنه يدعوها الى « الجهاد » معه فتأبى وجلا أو تقوى. ريحانة امرأة

طليقة آبدة كما تهوى روحه المتمردة وبعشقها ما في ذلك شك ولكن هل هي بالنسبة اليه الا انثى شهية؟ فانها لم تكن سوى وقفة لذيذة في طريق « المسافر » ومستراح ينفض عنده البطل « عناء الجهاد » ،جسد ممتع ولكنه مشدود الى الارض عاجز عن الارتقاء مثله الى « القمم الشاهقة » كأن ليس لها من روح إلا روح الجسد . كذلك كانت ميمونة مع غيلان في « السد » و « المرأة العارية » مع « راعي النجوم » في قصة علي الدوعاجي المشهورة على ما يعرف في هذا الاخيرمن تفهم عميق للنساء . فالرجل دائما روح متطلعة الى الغايات البعيدة وحركة لا تهدأ والمرأة دائما كتلة من الحواس وقرار في المكان (الدار كما نقول) ورضى بالوجود الملموس الداني . وعلى فرض أن هذا التصور يعكس تفاوتا حقيقيا بين وضعية كل من الرجل والمرأة في مجتمع ما بين الحربين أفهو من طبيعة الاشياء فيطلق حقائق أبدية : « أكلما تمرد شيطان في انسان قامت له امرأة نبيا ؟ أو كلما قامت في قلب أعاصير جعلتها النساء خطوطا مستقيمة ؟ » أو - ويقول هذا في ظلمة لا في ريحانة ولكن كلتيهما في الحكم « امرأة » - « كذا المرأة لا تكون الا واهنا مقطاع الجهد فاذا همت أو اشتدت بعض يوم اذا هي رماد » - واذا المؤودة سئلت ... » ظلم قديم . وما عجبي الا من أبي هريرة يرى البعيد بعينه الخارقة ويعشى عن القريب يريد أن يحرر المرأة واذا هو يكرس فكرة « نقصها الجبلي » .

ويدخل أبو هريرة طور العزلة فيختلي عن الانس في « واد لا يسكنه

الا الجن » . مكان ملائم يتماسّ فيه عالم الواقع وعالم « الغيب » بحيث تشف بينهما « الحجب » وتنكشف « الاسرار » كما سيقع بعد حين . أبو هريرة دائم التطرف معنى ومكانا : فكما يؤثر السير على شفا الهاوية كذلك يؤثر السير على « تخوم » الدنيا يشرف منها على « ما وراء » فعينه - كما قالت ظلمة - « أشد ما رأيت شوقا الى ما تراه غيرها من العيون » . وعينه مع صوته هما الشيآن الوحيدان اللذان يبدوان من معالم وجه المحتجب وكلاهما معقود بأعماق الروح من ناحية « كأن روحه البصر » وبأبعاد المجهول من ناحية أخرى « كأن صوته رجع غيب بعيد » هكذا أبو هريرة لا يعيش الا في اللا نهاية . وفي خلوة ذلك الوادي ينعم بذاته في توحدها سائحا في أرض كالعروس تؤتيه من شهي ثمارها ، سابحا في ديمومة تبدو مطلقة من الزمان أشبه بآدم في جنته . وتعود صورة الجنة مرة أخرى وليست المرة الأخيرة كاشفة في باطن أبي هريرة عن حنين شديد الى « الفردوس المفقود » الى « البدء » وما يعتقد من براءته وسعادته وأبديته . شوق الروح الى أصلها ؟ أفلاطونية قديمة . الانطلاقة عود على بدء أم نحت للحياة على غير مثال سابق ، من جديد واستنباطا من ممكنات التاريخ ؟ كدت أرى أبا هريرة كقول جحجلول المعري « يمشي الى الوراء زقفونة » . على كل لا تدوم بأبي هريرة لذته بنفسه . فما من عادته أن يقتصر على حدود فرديته طويلا والا اختنق في جلده . ألم يكن منذ الصبي ينزع الى الأخيرين نزوعا مؤلما ويتوق الى التلبس بهم حتى يحيوا فيه ويحيا فيهم ؟ ولكن لماذا هذه الشهوة الافتراسية التي تداخل مشاعره نحو غيره حتى يهم بشق

البطون وسرق الارواح كان الاخرين لا يعنونه من حيث هم بل من حيث هو وحاجته الى الامتلاء . أبو هريرة يزعج أحيانا من فرط عنجهيته . ولا يلبث ان يفتقد بعده الجماعي « فيشتاق العدد » عدد الجماهير ويعود اليهم « مرسلا » اذ يناجيه « الغيب » في ذلك المكان المسكون بسرّ الطين كما ناجى موسى ربه في طورسنا . وينزل عليه كالوحي يرده الى الجماعة . فقد ناحت الريح ذات يوم - ترجمه عن القوى الخفية - بصوت كأنه نشيج الانسان يتوجع إليه من الشقاء منذ القديم ثم هاجت فأزاحت الرمال وأرته رسما دارسا وجمجمة أدمية وقف عليها يفكر - كما وقف «هملت» على جمجمة «يورك» يتحسر : «أواه يورك المسكين !» - واذا هذه الاطلال والعظام البالية تصفعه «بقصته العجوز» : طين مآله الدمار والتلاشي وما فتئ يعاني حتى يخترعها من جديد . وكأنما تتجمع في نفسه اذاك آلام الانسان وثورته فيرفض « الحتم » ويبصق في وجه الموت مصرا على « بكر السبيل » . ثم يرى في المنام رؤيا تؤكد فيه روح المقاومة . يرى صورة الانسان تأله « وقال أنا ربكم الاعلى » : فرعون « ذي الاوتاد » يشرف من أعلى صلافته الانسانية - وهامان رأس السحرة الى جانبه - على قومه وهم يغالبون الدهر بالطين والصخر ليشيدوا عظمة الانسان وخلوده . فتلهمه الرؤيا معنى القدرة الانسانية الخلاقة والفعل الذي « ينفي العدم » وأن « الطين » الذي جبل منه الانسان كائنا ضعيفا عابرا لهو الذي يمكنه من بناء مجده ودوامه . يطل من وراء فرعون شخص « بروميثي » رمز العصيان الانساني كما لاح من خلف أساف ونائلة طيفا « بخوس » اله الإباحة و « فينوس » ربة الحب . وشأن

المسعدي في هذا النص وغيره من النصوص الاخرى أن يستبدل من وجوه الميثولوجيا الغربة وجوها أخرى في مثل قوتها مأخوذة من الاساطير العربية حفاظا على الاصالة الثقافية في مجال التخيل والترميز . وهذه من ابداعاته المحسوبة له . أيهما مالك السماوات والارض : الانسان أم الاله ؟ « فرعون أم الله ؟ » سؤال خطير يطلب جوابه في مغامرة جديدة مغامرة الفعل .

وينبىء أبو هريرة في تجربته هذه بميلاد بطل « السد » : غيلان « الانسان الرجيم » الذي تمرد على الآلهة وأخذ ينازعها السلطة على الكون اعتدادا بقوته . وكلتا الشخصيتين تجسم في مستوى الابداع الطاقات الجديدة التي فجرها التاريخ في صلب مجتمع ما بين الحربين وكانت تتطلع الى السيطرة على المصير بمسؤولية تامة حتى جعلت ارادتها فوق مشيئة الاقدار « فلا بد أن يستجيب القدر » كما قال الشابي . وتأكد هذا الايمان بالانسان في مصارعة المواقف الجبرية التي كانت توكل كل شيء الى القضاء فصار « يمكن الخروج عن سلم قيم مركز على معنى الله الى سلم قيم مركز على معنى الانسان » (1) .

ويخرج أبو هريرة من « ضيق محبس النفس » الى « كثرة اليم » ليعمل مع الجماهير عساه يحقق فيها وبها الذات الانسانية في أشمخ

(1) « مع الاستاذ محمود المسعدي كاتب الدولة للتربية القومية » - حديث مع أسرة مجلة التجديد - السنة الاولى العدد الثاني - مارس 1961 - .

صورها . ويطلع على « أحياء العرب » بكلبه وعصاه في هيأة بين الرسول الهادي - وله جنة - والزعيم السياسي . وكان الناس من شدة المجاعة كالوحوش تتقاتل على جيفة وقد قوست ظهورهم كثرة السجود لرب السماوات يوكلون اليه الامر في « اسلام » جبان وفرط الركوع لآلهة الارض يستبدون عليهم ويسوسونهم بـ « حكمة » الرومان القديمة : « جزلة من رغيف ولعبة تلهيهم كالصبيان ». فيستفز أبو هريرة فيهم العزة بالانسان ويدعوهم باسم « مذهب غريب » الى الارتفاع - مدى قامتهم قامتهم البشرية - الى السلام والاخاء والقوة والبناء أو يخطب فيهم كالمهيج الثوري : « هاته الارض نحن خلقناها وهاته السماء نحن رفعنا عمادها فأقمناها فهل ملكتم من خيراتها شيئا ؟ ... حجبوا الشمس وفيها لكم نور به تهتدون ، وأمسكوا عنكم العيون وفيها لكم حياة ، وذبحوا عنكم البقرة الصفراء . وقالوا ما يولد منكم اليوم غدا نأكل جهله ونمتص دمه وما حرثتم اليوم الى أفواهنا من الساعة سنابله. وقالوا : نسائكم لنا اماء وأرواحكم مرعى أيها الضعفاء ... » يرن الكلام كأنه مقاطع قرآنية أهي آيات « كتاب » جديد ؟ آيات : « سفر الفقر والثورة » كما قد يقول الشاعر عبد الوهاب البياتي ؟ فيدخل الجائعين جنته ويشبعهم من خيراتها ويخرج بالمستذلين كتائب ثائرة على الطغاة توقدها « حمراء » ونفسه ثملة بطرة من الفعل ومنجزاته ولكن بعد سنتين من المعاناة يخيب سعيه مع الجماعة خيبة تلقي به في قاع اليأس من الناس ومن نفسه « وكان

ذلك أول انحداره الى نحبه » فقد وجد الجموع « أحقر من بعوض » نفوسهم«شر»في ضراوة الذئاب ـ كما قال عنهم « هبس » من قبل ـ« وهن » لا دواء له وهم ان استحقوا « الرحمة » فلا يجوز « الايمان » بهم .

لا أرى أبا هريرة « الرسول » في خيبته مع الجماعة الا صورة أخرى من « النبي المجهول » :

أيها الشعب ليتني كنت حطابا فأهوي على الجذوع بفاسي
ليت لي قوة الاعاصير ان ضجت فأدعوك للحياة بنبسي
ليت لي قوة الاعاصير. . . لكن أنت حي يقضي الحياة برمس

« لكن » ! كل المشكل في « لكن » هذه التي وقفت في النص كما وقفت في الواقع جدارا منع في وقت ما بعض كبار أدبائنا ـ وكانوا اذاك شبانا ثائرين ـ من تعميق علاقتهم بالشعب . لان الشعب « روح غبية » كما يقول الشابي و « العـدد » « شر ووهن » كما يقول المسعدي ؟ لو قلبنا معنى « لكن » فجعلناها استدراكا على الاديبين لا على الشعب ؟ ألا يجوز أن نتساءل على ضوء التطور التاريخي من الذي كان في الحقيقة « النبي المجهول » في ذلك العصر . هما أم الشعب ؟ أما تحرك العمال تحركهم العتيد بين 1924 ـ 1926 ؟ فكيف يصرّ «نبي» الشابي سنة 1930 على اتهام الجموع بالحماقة ؟ والمد العشبي الكبير من 1932 الى 1938 ؟ وانتفاضة 9 أفريل 1938 ؟ ألم يكن

في كل هذا إلا الفساد والفسولة كما يقول « رسول»المسعدي ؟ لو أردت أن أقسو على أبي هريرة لقلبت عليه بعض كلامه وقلت له ساخرا اذ يتساءل في القفر أليما وحيدا بعد فشله : « أو هكذا يزني الدهر بالامل البكر؟ » : « لو كنت عشت في مستقبل الدهر لقرأت ما سيكتبه التاريخ من ملاحم « أحياء العرب » صارعوا استعمارا كان يدوك « الحتم » ـ ولعله من حيث لا تشعر حقيقة « الموت » الذي كان يسد عليك الافق ـ فكسر نظامه وفتح لـ « لأمل البكر » ـ ولك أبا هريرة ـ سبيل التحقق . فان لم يتحقق الامل كله بعد ذلك فالمسيرة لم تنته . اذن معنى هذا التضارب الشديد بين النصوص والواقع المساق لها ؟ فهو ان دل موضوعيا على شئ فانما يدل على أن المسعدي ـ كالشابي ـ ما كان يعنيه تحليل التجربة التاريخية على حقيقتها بقدر ما كان يهمه أن يؤكد موقفا ذاتيا متأزما استوحاه من فلسفة ما . فلسفة « نيتشه » وكان من أئمته في التفكير ـ لم يؤثر في الشابي الا بطريقة غير مباشرة . وهي ترتاب في « الكثرة » ارتيابا شديدا ولا تؤمن بغير الافذاذ الا واحد ترى فيهم مصادر القوة في التاريخ والروح في الجموع:« دعوني أيتها الاجساد ليس لها روح غير ما سلبن من روحي ! » . هكذا الجماهير والنساء لدى أبي هريرة سواسية جثث خاوية وما الروح كل الروح الا هو؟ عُجْب رومنسي ! كالذي لعب برأس الشابي طويلا

الويل للدنيا التي في شرعها فأس الطغـام كريشة الرسام

ويحضرني ـ ردا على معنى هذا البيت ـ قول مأثور عن بعض

شخصيات الكاتب المسرحي الالماني «برطلد برشت» ولولا تطرفه في المنحى المعاكس لهتفت به « الويل لشعب يملك ابطالا ! ». ومسّ عندنا رؤوسا أخرى في الادب والسياسة فغلطها في حقيقة جدواها تاريخيا بقدر ما حجب عنها فاعلية الجموع . وبعد أليس اذا لم ير أبو هريرة - بعد « النبي المجهول » - من وجه الشعب الا جانب الظلام قد نظر اليه بعين واحدة لان الاخرى مأخوذة بنو « انساه » المتشامخ ؟ على أن الشابي انتهى قبل موته الى الإحساس بأن الشعب قوة من قوى الكون فكفر عن « النبي المجهول » بقصيدته الذائعة « ارادة الحياة » فالتأمت « ريشة الرسام » و« بفأس الطغام » وأما المسعدي ؟ فأمره محير . فهو يحكم على لسان أبي هريرة ببطلان « العدد » وفي الوقت نفسه يهدي قصته (في المخطوط) .

الى هـــذا الجيــل مــن البطولــة حياته !
الى روح تونس الخالدة أرض المزج والنار !

تجاذب بين المبادئ وقوة الواقع ؟ وهناك ما هو أغرب . فكرة المسعدي في الجماهير لم تتغير الى اليم لانها عقيدة فلسفية وليست نتاج ظرف عابر . ولو شاء لامكنه أن يقلم قصته بمثل ما قدم به مسرحيته « السدّ » . « هذا كتاب كتبته في عهد انفراد وتأمل وامتحنته بعد العشرة والعمل مع الناس سنوات فلم ألفه تنكر لي ولا أنكرت منه فأخرجته على علاته » .

انظر الى حديث « الجماعة والوحشة » وقد جعله الكتاب تتويجا

للتجربة الاجتماعية فهو لا يقل تشاؤما من بني الإنسان عن سابقه حديث « العدد » وبينهما مسافة 34 سنة ...شـيء مدهـش اذ هو الحديث الوحيد الذي أضافه الكاتب الى النص الاصلي قبل طبع القصة كاملة . شيء مدهش ! مع أن المسعدي كان بعد « عهد الانفراد والتأمل » قد التزم قضايا بلاده وخاض صراعات عصره مثقفا عنيدا قاوم الاستعمار على الجبهة الفكرية مع أسرة مجلة « المباحث » المشهورة ومسؤولا نقابيا كبيرا واكب جماهير العمال في نضالهم ووزيرا للتربية القومية غداة الاستقلال أرسى سياسة التعليم على دعائم ديمقراطية وعصرية أفلا يعتبر كل هذا الا مغامرة فردية لا ساس لها يعمل « الكثرة » ؟ ألم يكن محمولا بقوة الحركة الجماعية ؟ المسعدي يعرف الحجة عليه ولكنه حسب لغة العقود « يصر ويوقع » على مذهبه .

ويرتد أبو هريرة الى نفسه وقد تقطعت وشائجه بالناس ليعيش - حتى وهو بينهم - في وحشة لا تطاق يعاني آلاما باطنة تذكيها فيه ذكرى الموت منذ الصبا : ذكرى أخته الصغيرة عذبتها الآفات ثم ذهبت بها باكرا و« حسبه الشيطان » « فقالوا هو الله ». وتسلل الخلل الى منطق الحياة حتى صار أبو هريرة لا يرى فيها الا « وجه حق باطل » : عبثا ولا معنى يشتمل عليه من كل ناحية ويصليه بنار جحيمه فيبكي « من القضاء » أو يشرب ليدوخ . ثم يفر بمشاكله المستعصية الى الدين ليلتمس فيه « الغيبة » ويرقى الى « دير العذارى » وهو منفصل عن الارض تقربا للسماء فيسأل رهبانه طريقة الفناء في ذات الله وكان « ممن ذهب ايمانه وحلت حيرته » فيعتكف صائما ويمعن على طريقة المتألهين

من النصارى - في تعذيب جسده تمزيقا بالأظافر لعله يخلص منه ومن مقتضياته الى الملكوت فينسى الارض وطينها . ولكنه يطلب نفسه بعد كثرة الصلاة والتسبيح فيجدها « حاضرة » بكل أثقالها واذا هو مع ظلمة « في الشيطان » يملآن المحراب فجورا - كأساف ونائلة - وقد أدرك « أن الآلهة لا تقام اذا هوت » وأنه ما تناسى المرء الجسد الا « أكلته الخيالات » .فكانت مغامرته مع ظلمة على عكس مغامرته مع ريحانة فهذه أغرقته في الحس حتى اضطرمت فيه أشواق الروح وتلك أوغلت به في مراقي الروح حتى فار فيه الجسد. ويظل أبو هريرة معلقا بين الروح والجسد والسماء والارض لا يجد في ذا ولا في ذاك كامل ذاته .

وتدخل أحواله بعد ذلك في تأزم شديد يدور في حلقة مفرغة من الاشكال ولا يجد منفذا يجري كالماء لا يقر له قرارا من شدة الحيرة صامتا كالعمي « ضاع وعجز عنه الكلام » كالعقلة التي أصابت لسان الغزالي في « المنقذ من الضلال » « أعمى » ضاعت « قبلته » بعد « موت الجهات الست » فتجرد العالم من كل دلالة وتقبض روحه شيئا فشيئا عن حدود الدنيا وتنزع به الى التجاوز فلم يبق له الا أن يجرب « حكمة الجنون » على غرار أبي رغال . وما أشبه أبا رغال يسوس قومه بمنطق العبث الى حد الظلم الازرق بكليغولا جعل حصانه عضوا في مجلس الشيوخ يستشيره في مصالح الناس وقضايا البلاد . فهل معنى الحياة في أن لا معنى لها ؟ وهل « العقل » في أن يواجه المرء بطلانها بالعته ؟ ويجعل أبو هريرة

من هذا المآل وقد أشرف على تخوم الخبال . ولكن المأساة تظل تطحنه حتى ليسير في الشوارع كالميت بين الاحياء يسأل المارين صفعة تقتله « فتحييه » وهكذا بعد « البعث الاول » التي فتح بصيرته على الوجود « وقع على الدنيا فأفناها » دون أن يصيب امتلاء فهو الآن أشعر ما يكون بنقصان الكيان رغم كثرة المغامرات فما وجد « حقيقته » كاملة لا في الجسد ولا في الروح ولا في الوحدة ولا في الجماعة ولا في العقل ولا في الجنون يبدو كأنه اقتنع بأن الانسان كائن أبتر محدود بحدود « منزلته » في الوجود ولا يكتمل الا بتخطي « عالم النسبة » الى لا نهاية المطلق وهذا ما انتهى اليه أبو هريرة بالفعل في خاتمة مسيرته عند غروب شمس آخر يوم من أيامه استجمع فيه ذكريات ما فات من وقائعه في الدنيا : الولادة والموت وفتنة المرأة وحماقة الناس ثم « ضرب عنق الزمان » و« خرج من الظلمات الى النور » في ساعة المغيب التي انما يخرج فيها سائر الناس . كأبي المدائن وهو صورته قبل البعث الاول . من ضوء النهار الى عتمة الليل . يناديه « الحق » في خلاء جبل أصخر شاهق أن يتسامى الى « سحره » فيهمز أبو هريرة فرسه وينطلق مليا وما هي الا أن تفرقع الصخور هاوية .وتصهل الدابة من الالم ويصيح أبو هريرة فرحا حتى يخيم على المكان ظلام موحش . انتهى كل شئ على مقربة من أبي المدائن . رمز الرجل العادي . وهو مبهوت أمام هذا المشهد الهائل وكأنه يحضر « مأدبة شياطين » . و« غاب » أبو هريرة في أوساع الكون .

خواتم المسعدي في كامل آثاره متشابهة . كلها تعتمد معنى واحدا: « الجواز » - في شكل غامض - الى عالم آخر لا نعرف أين يقع فكأنا

حملت الرياح غيلان بعد انهيار السد و « حوت طهارة الاعماق » السندباد بعد أن اختنقت نفسه « بتونة » الوجود كذلك ابتلع الكون أبا هريرة . أما ان الكاتب يجلل « انتقال » أبطاله عن دنياهم بهالة من العظمة فهذا ما لا شك فيه ولكن القارئ يظل حائرا في معنى هذه « النهايات » لا يدري أهو عظمة الانكسار أم عظمة الظفر . وانه ليبدو من المتناقض ألا يحقق هؤلاء الابطال انسانيتهم تامة الا بخروجهم عن بشريتهم . ومن ثمّ تبدأ نصوص المسعدي ـ على اختلافها ـ ملاحم تشيد بقوة الانسان وتنتهي مآسي تؤكد حدود تلك القوة فكأنما الانسان عاجز مهما جهد عن تبديل وجه الحياة جذريا .

وبعد فرأي المسعدي أن « الادب مأساة أولا يكون مأساة الانسان يتردد بين الالوهية والحيوانية وترف به في أودية الوجود عواصف آلام العجز والشعور بالعجز أمام نفسه » (1) .

أفلا يكون شرف الانسان الا في المحاولة أبدا ؟ أخشى أن يقع الكاتب من حيث لا يحب في أسطورة سيزيف « مع فارق جوهري هو أني لا أضع « مأساة المغامرة الوجودية » في اطار « العبثية » بل في اطار « بطولة الاصرار على الجهاد ولو ضد المستحيل ولو مع تجدد الانهزام وتكرر الاندحار » يجيب المسعدي .

بلا جدال أبو هريرة صورة مثقف وعى ذاته ورياح العصر تدفع المجتمع الى التقدم والحرية فانطلق ينحت له بين الزهو والجذل مثلا جديدة تشيد بجلال الانسان وقدرته على صنع مصيره . ثم اذا السعي الجسور يتبدد في متاه اللا معنى وتذوب في « آلام العجز » نشوة الخلق .

(1) « أبو العتاهية » ـ مجلة المباحث » ـ العدد 12 ـ 1944

9 أفريل 1938 : يوم في التاريخ تهشمت على عنفه الموجة فانطفأ في الاشياء ضياؤها وتلطخت آفاق البلاد بالسواد وما لبثت آفاق العالم بأسره أن تلوثت هي أيضا بدخان كثيف انبعث من حرائق الحرب وخرائبها . تشاؤم أبي هريرة من قتامة ذلك المناخ واذ ضاق ظرف الزمان عن الاشواق يئست من الواقع وانقذفت خارجه نحو المطلق والابد. تلك قصة الافاقة على التاريخ بين فرحة الاندفاع وأوجاع الردة من قبل أن يعود الموج الى التدفق نحو الاستقلال . على أن هذه القصة وان انبثقت دلالاتها من واقع عصرها في تجاوز مستمر لذاتها تصير مع الزمان ولا تكون . فهي ككل أدب حي منتهية متجددة : منغلقة ـ من حيث هي أجوبة نهائية ـ على رؤية صاحبها وايمانه بأن المأساة حقيقة الانسان في الكون ومن حيث هي أسئلة جذرية عن معنى الوجود منفتحة على القراء اليوم وغدا تخض الضمائر حتى لا ترضى أبدا بالواقع المعطى وتحفزها افرادا ومجتمعا الى تبديل الحياة جيلا بعد جيل وأفضل فأفضل .

والقصة ، أخيرا ، على السواء مغامرة وجودية جريئة وتجربة قصوى في الكتابة . فكما بعث المسعدي أبا هريرة اسما ومعنى من أعماق الماضي كذلك بعثه شكلا وأسلوبا في تناسق فني متين . فبينا خير كتابنا يكدون قرائحهم لتملك وسائل الرواية الغربية وقد يئسوا من موروثهم القصصي واقتنعوا بأن لا معاصرة الا ما صور الغرب ، رفض المسعدي أن ينقطع عن أصوله الثقافية ليغترب في صياغات الغير وأصرّ في عناد شديد ـ وكان الوحيد ـ ألا يتقدم في العصر الا مستمرا مع ذاتيته الحضارية . ولا يؤسفه شيء كأن يرى الادب العربي الحديث في جل مدارسه صورة هجينة من الاداب الاروبية فلا يزال يلح على واجب الترفع عن ذلة

الحاكي الى عزة المبتكر ويقينه أن التجذر في التراث هو الكفيل وحده بتمكين العرب من مشاركة الأمم الاخرى في الابداع ، ابداع قيم الفكر وأشكال الفن . وكل ما كتب ، وأبو هريرة بالخصوص ، رهان كبير على ذلك . عاد الى اعماق التراث فاستمد منه أعرق أشكال السّرد عند العرب : الحديث أو الخبر لا ليقلده بروح سلفية عقيم بل ليعيد اختراعه بقوة الذهن الحديث . فخلافا لما وردت عليه الاحاديث في التصانيف القديمة من ساذج النظم وزعها المسعدي في قصته حسبما تقتضيه أحدث أساليب البناء القصصي . ففصلها على المواقف وحدات متقطعة تتداعى معنويا أكثر مما تتلاحم زمانيا لأنه كسر خط الزمان وتصرف فيه طردا وعكسا بما لا تنكره آخر تقنيات « الرواية الجديدة » (والقصة ألفت سنة 1939 ولم يتح لها أن تنشر كاملة الا سنة 1973) . وركب تلك الوحدات عروضيا بين طوال وقصار كالاسباب والأوتاد في التفعيلة الخليلية . يمتد النفس السردي في المغامرات الكبرى ويتقارب متسارعا كاللهاث في أشد فترات الحيرة والتأزم . فكأن القصة كلها بيت من الشعر بوقعة بحر مستنبط من روح العصر . وتفنن المسعدي في ايراد حوادث القصة بتعديد رواتها . فاتخذ من الأسانيد التقليدية زوايا ينظر منها الى حياة البطل من بعيد أو قريب والخارج والداخل ومن قبل أو من بعد . وتتضارب الأقوال أحيانا في الحدث الواحد كما في «حديث الطين» فتختلف اذاك على أبي هريرة الأضواء وتتقاطع حتى تغمض الرؤية عمدا. وتلاعب الكاتب بأوقات الرواية كما تلاعب بأوقات الاحداث لمزيد التنويع في البناء . خذ لك مثلين : «حديث الوضع » و «حديث الوضع ايضا» وهما في موضوع واحد

علاقة أبي هريرة بريحانة ، ويتلاحقان في ترتيب الكتاب مباشرة ، فبينما الاول حدثت به ريحانة بعد وفاة صاحبها كما يشهد بذلك ترحمها عليه في آخر الكلام سرد الثاني أبو هريرة « في آخر عهده بالدنيا » . فالقصة تجري من أولها الى آخرها على زمنين : زمن الوقائع وزمن روايتها والمدة بينهما تتفاوت من خبر الى آخر كما في المثلين المذكورين : زمن الحدث فيهما واحد وزمن الحديث اثنان قبل موت أبي هريرة وبعدها . ويتضاعف زمن الرواية بتضاعف المحدثين في السند : « روي عن أبي سعد ، قال : حدثت ريحانة قالت : ... » وبديهي أن تكاثر الازمنة يكثف القصصية في الخبر لأن كل راو ـ وهذا أعجب ما في وظيفة السند ـ حكاية مسكوت عنها في النص . فـ « حدث أبو المدائن قال : ... » قصة مضمرة تترك لك حرية تخيل تفاصيلها وهي قصة ظروف رواية الخبر وتشتمل عليه كاطار له . كل متن في الخبر يندرج في اسناده كقصة داخل قصة ودائرة في دائرة أوسع . هذا اذا كان المحدث واحدا أما اذا كان اثنين : « حدث مكين بن قيمة السّعدي قال : حدثني هشام بن أبي صفرة الهذلي : ... » تشعب تركيب الخبر فصار قصة داخل قصة ودائرة في دائرة أوسع في دائرة أوسع (تمثل الأمر سينمائيا تدرك حقيقته) . ولا تنقفل آخر دائرة في النص الا انفتحت أخرى خارجه لأن سلاسل الرواة تفضي الى الكاتب ومنه الينا فيصبح القارىء بدوره من المحدثين ... وحلقة في اسناد القصة . وما أنا الآن الا من رواتها وهذا التقديم قصة أخرى عنها . أبو هريرة ـ شكلا ـ قصص مضاعف : قصة تتولد عنها قصص تذيعها ولا تنتهي الا أن تموت هي . وكلّ الرواة داخل الكتاب وخارجه كصوت الذاكرة الجماعية يردد

على الأجيال أسطورة رمز كبير . هذا ما فعله المسعدي بالشكل وفعل مثله بالاسلوب . تلقى عن كبار الناثرين القدامى لغتهم الأثيلة فعدل بها عن موضعها وولدها كلاما آخر . فهي تتحرك في النص مشحونة بمادة الفكر الحديث ومثقلة في الوقت نفسه بتالد معانيها ، قديمة جديدة . وقد وقف منها الكاتب موقف الشاعر فخاطبنا بها على أسلوب الاستعارة . بث فيها من خياله الغريب مجازات يلتقي فيها الحسي بالذهني فجأة على بعد المسافة بين السجلات : « والوهج يأكله (أبا هريرة) أكل الحسناء للعفة » . « وكان كلما انتشر في خواطره سجا كالبحر وشاع كالدهر وامتد » . « فكأن حديثه رجع غيب بعيد » وعشرات أخر وليست من « المحسنات » بل هي موظفة في كنه المدلول تختزله في صور قوية . فان وجد أبو هريرة ، للرمل « كمسّ لطيف النهود » فلأن الرمل سبيله الى جسم الفتى العاري ويصبح جسم الفتاة بدوره « رقيق الرمل يجري بين الاصابع » . المرأة أرض والأرض امراة « وتصورت لي بكر من الأرض تدعوني » دلالة على اندماج الانسان في الطبيعة والطبيعة في الانسان وبذوبان معا في وحدة الوجود وحدة شهوانية تقطر لذة جنسية كعناق العاشق والمعشوق . وكتابات المسعدي مبطنة برغبة جنسية محمومة وليست مفاتيحها في يدي . وفضلا عن الخيالات فعبارة المؤلف كلها اشارات لا تكلمنا بالمعنى بل بمعاني المعنى اذ هو « ملتزم للرمز اجتهادا » كما يقول وحريص على أن يجعل الجملة « حبلى » . أرأيت كيف سافرت بنا النار » من معنى الى معنى فانظر الى « الشمس » كيف تنصرف الى مشتقات شتى : فجر البداية وغروب النهاية ووضح التجلي أو روح الكون ومعبود الفراعنة راع أو الـــه عبد

الشمس في الوثنية الجاهلية : سلاسل من الدلالات تذهب في كل وجهة ولا تنتهي . لغة المسعدي لغة «جمع» لا تقول شيئا الا أوحت بأشياء فوراء الصمت الظاهر كالضجة تداخله فتكثف الابلاغ . وبلاغة أسلوبه في تصريف الأسماء ، وأسماء العناصر الاربعة بالخصوص ، شبكات من الرموز متداخلة كالشرايين تتفاعل خلالها المعاني فتتناسل وتتكاثر بلا حد .

أبو هريرة من أقوى نصوص أدبنا المعاصر ، كتابة متجذرة في صميم التراث تختبر في جرأة عجيبة طاقة أشكاله وأساليبه على أدا روح العصر ، نموذج من الانشاء الفني المبتكر ورهان كبير على الثقافة العربية وقدرتها على الخلق الاصيل .

توفيق بكار *

ديسمبـــــر 1978

* من وجوه الحياة الثقافية في تونس . استاذ جامعي يدرس الادب العربي المعاصر في كلية الاداب والعلوم الانسانية . معروف ببحثه في النقد الحديث ودراساته

الفاتحة

طلبتُ المُستقرَّ بكل أرضٍ فلمْ أَرَ لي بارضٍ مُستقَـرًّا

(ابو العتاهية)

حديث البعث الأول

« ستعلم يوم نُبعث من بين الأموات ..... »
(إنسان)

حدث أبو هريرة قال :

جاءني صديق لي يوما فقال : أُحبّ ان أصرفك عن الدنيا عامّةَ يوم من ايامك ، فهل لك في ذلك ؟ فقلت : ان وجوه الانصراف عن الدنيا كثيرة ، واحب ان تُعرّفني أيَّها اخترت لي. فقال : اخفَّها وقعا على النفس والذّها مساغا . قلت : اني أخاف أن يكون انصرافا ليس بعده عَوْد ، ولستُ متهيئا للرحيل . افلا سبيل إلى الافصاح ؟ قال : لا . وضرب بكفّه على كتفي . قلت : اذن يكون ذلك متى ؟ قال : غـداً .



فلما كان من الغد سبق الفجرَ اليّ . وكنت لا أعهده مبكارا . فاستغربته في تلك الساعة.وقلت : همَمْتُ ان أُقسم أنك لم تبكّر كيومك قط . ما الذي عجّل بك ؟ قال : ننصرف لساعتنا . قلت : مهلا يا عافاك الله . فاني لم اتوضأ وقد تبيّن الخيط الابيض من الخيط الاسود . نتوضأ فنصليّ ثم ننصرف . فقال : لو فعلنا لفاتنا خير كثير . دعِ الصلاةَ اليوم فالله غافرها لك ، ولنذهبْ فليس منه بدّ . فلم أجد الا القيامَ معه . فقمت وانا استغفر الله واصلح من ثيابي . فذهب بي إلى بيته ، وكانت بفِنائه نجيبتان مُرحَّلتان ، فقال : اركب هاته . ففعلت وركب الاخرى .

* *

ثم خرجنا من مكة وانصرفنا عن طريق القوافل ، وسرنا سيرا حثيثا حتى اصبْنَا الرمال وجعلت النجيبتان تغرسان وتقلعان فإذا خطاهما ليّنة عذبة كأنها مسٌّ

خفيف ، ونحن نُصوِّب ونُصعِّد من كثيب إلى كثيب . وكنا في غوْرٍ اذ قال : الآن نترجّل . فقلت : والله ذاك ما كنت أريد ؛ فقد أخذ منيَ الرملُ ولونُه ولطفُه . ثم ترجّلنا وأنخْنا راحلتينا وعقلناهما وجلسنا على الرمل . فجعلت أضرب برجلي واقلّب يدي فيه فاجد منه كمس لطيف النهود ؛ وكانت قد نامت فيه برودةُ الليل فهو كاليقين بعد الحيرة .وصاحبي مستلقٍ مُصيخٌ كأنه يتوقّع سمعا .

ومضت ساعة . ثم اذا هو يُومئْ بيده أنِ اصْعَدْ في الكثيب . فصعدت فرأيت على رأس الكثيب المقابل من وجه الشرق شَبَحَين . وكان عاليا فكأنهما على صفحة السماء المُبْيَضَّة . وقال لي صديقي : انظر ولا تتكلم . وتَبَيَّنْتُ الشبَحين فتبيَّن لي فتاةٌ وفتى ، في زيّ آدم وحواء ، ممدودان جنبا إلى جنب متجهان إلى مطلع الشمس ، وكانت على وشك البزوغ فالمشرق كلهيب النار .

ثم بدتْ من الشمس بوادرُ نور . فإذا الفتاة ارتمت وقامت كأنها الظبية احسّت بالنبل . وجعلتْ تَهُمّ بالشرق فلا تخطو الا خطوةً ، ثم تتراجع وترسل يديها إلى السماء والشمس ، كأنها تروم ان تدركهما ، ثمّ تتراجع بهما في هيئةٍ من الرقص كأنها الغصن يهزّه النسيم . وسكَنَتْ طرفةَ عين . ثمّ عادت في الرقص إلى مثل حركاتها الاولى . فرأيتها لسانًا من الرمل قائمةً على رأس الكثيب ، وكأنها وُلِدتْ منه أو ذابت فيه . فهي رقيق الرمل يجري بين الاصابع . وأرسلتْ إلى ذلك صوتَها بالغناء . فكان يترقرق في حلقها ، ويرق لرنين يديها وثدييها وكامل جسدها ، ثمّ يتراجع بتراجعه حتى إخالُه سكَن . ثم تعود فترقص وتغني :

سلامٌ على الـــرُّوح   يَسري على يُسْـــرِ
سلامٌ على النُّـــور   سلامٌ على الفَجْـرِ

حتى كأنَّ صوتَها ورقصتها في الاندفاع والتراجع ابتسامةُ السرور أوّلَ نشأته . ثمّ سكنت ويداها إلى الشمس البازغة واحدى رجليها مرسلة كالرمح المصوَّب في الهواء ، كأنها تهم ان تطير ، فكأني بها قد انفصلت عن الارض وطارت . ثمّ انفجر صوتُ مزمارٍ في قوة وروعة . وارتمَتْ الجاريةُ ترقص في سرعة وشدة . واذا المُزمِّرُ الفتى ، وقد قام فبدا على وجه السماء المشتعل كالصنم الحيّ . وجعلت الفتاةُ تدور أو تقف ، وتقوم أو تهبط ، فتقع في هيئة الساجد فإذا هي قائمة ، أو ترتفع فإذا هي ساجدة . فكأنها دخانٌ كاذبٌ أو سرابٌ خُلّب أو خفقةٌ ولا جسد . ثمّ انقضتْ من صوت المزمار قوّتُه . فارتدَّ رقيقا حتى كأنه وحيٌ من الله أو همسُ الشياطين . وسكَنَتْ عن الجارية سرعةُ الرقص ، فصارتْ تتثنّى بتثنّي الصوت وتتهادى لتهاديه وتبطئ الدوْرَ لبطئه ، حتى رأيْتها أصبحتْ ذوبًا في الهواء أوسكّنَها نفَسٌ من النسيم فهي في لينه .

ودام ذلك ساعةً ، فرِحْتُ له أريحيَّةً عذبة ، وصرفني عن صديقي وهزّني الطربُ . حتى كدْتُ آخُذ في الرقص من حيث لا أشعر . ثمّ دقَّ الصوتُ حتى سكن . واذا الفتى قد وثب إلى الجارية ورفعها من خصرها فبدَتْ على يديه ممتدَّةً في الهواء ويداها مقرونتان في هيئة المقبل على البحرِ أنْ يغوصَ فيه ، والشمس ناشئةٌ تكسوها . ثمّ حطها الفتى الى الارض فتعانقا وصوَّبا في الكثيب يرقصان معًا ، حتى حجبهما عنا .

* *

ثمّ التفتُّ الى صديقي فإذا هو يبكي احرَّ بكاء . فقلت : والله انك لغريب الاطوار : أتبكي وما في الامر غيرُ الفرح ؟ فقال : اتعلم يا أبا هريرة ما قِصّتهما ؟ قلت : لا والله وان بي لشغفا إلى ذلك . فقـال :

ضلت لي مرّةً نجيبةٌ كانت أحبَّ ابلي واحسنها عندي . وافتقدتها فذهبت أقصُّ اثرَها ، وكانت الساعة الضحى ، فإذا هي قد قطعتْ مسافاتٍ حتى وقعتْ على ماء هو وراء هاته الكثبان . فأتيتُه فرأيت تينا وعنبا وخيرا كثيرا . وجُلْتُ فيه فلم أجد به حيًّا . وذهبتُ اتبيَّن اثرَ الناقة حتى وصلتُ عريشا من سعف النخل ، يجري بقربه ماء وفي الماء تينٌ وعنب . ثمّ اذا أثر انسان أو اثنين . فبينما أنا استغرب ذلك وافكر في من يكون على هذا الماء وليس له بيت ، اذ سمعت غناءً . فصرفتُ وجهي اليه ، فعنَّا ليَ مُنحدِرين من كثيب ، وهما يرقصان ويلعبان ويغنّيان . فلمّاقربا منّي وجدتُهما عاريين ، وكدتُ اراهما من الشياطين . ثمّ سبقَتِ الجارية صاحبَها اليّ . فاقبلتْ عليَّ في خفة الهواء ، فاخذتْ بيدي فانزلتْني عن راحلتي وهي لا تنفكُّ تغنّي . وكانت والله من حسن الصورة واشراق البشرة فيما لم أرَ مثلَه قط . ثمّ ارادتني وقالت : كُنْ

زهرةً وغنً . فلم اتمالك والله عن الضحك وقلت : مالك ؟ أجُننتِ ؟ دعيني . وتراجعْتُ تخلُّصًا منها . فتركتني ، وطفقتْ ترقص وتغني ويغني الفتى وأنا أنظر ، حتى دخلني من ذلك طرب شديد . وادركت أنه سلامٌ وترحيب ، فاستأنست وقلت : والله لا أنصرف أو أعرف قصّتهما . وذهب عني أمرُ الناقة . فبقيت حتى سكنا .

ثمّ جلسا واجلساني ، وجعلا لحْما مشويا وتمرا وعنبا وتينا بين يديّ . وقالا : كُلْ هنيا فهي سرورٌ كلها . ثمّ تحدثنا ، فإذا هما على أدب كثير ، يرويان من الشعر ويقولانه ويقصان من ايامنا ويصنعان على البديهة من الاصوات ما لم أسمع والله أمتعَ منه . فسألتهما في انقطاعهما عن النّاس ، فقالت الجارية : دُعِي النّاسُ فلم يأتوا ودُعينا فجئنا . فاقبلتُ على الفتى كالمستفسر . فقال : نعم . دعوة الدنيا ، دعوة الكون . ترى هذه

الاشجار وهذا الماء وهذا النور وهذا الفضاء وهذا الخلاء ؟

ثم قاما عني . ولم يسكُنْ بهما الرقصُ ولا الغناءُ ولا الجذلُ وانا اتمتّع بالنظر اليهما ، حتى مضتْ لنا في ذلك ساعة . ثمّ ذكرْتُ شأني ، فانصرفتُ وصوتاهما يشيّعاني بما لن أنساه أبدا من بديع الغناء . وقد اكلا ناقتي وآكلاني منها فما كان فقدانٌ أطيبَ من فقدانها .

وقد ذكرتُهما بعد ذلك كثيرا ، وعدتُ لاستماعهما والنظر اليهما خلسةَ أياما ، حتى نشأ لي منه في النفس كالشوق إلى الجنّة وكرهت حياتي بين الاموات .

وسكت صديقي ، فإذا هو قد عاد اليه البكاء وكان سكن عنه . ثمّ قمنا وعدنا إلى مكة .

وبقيت عامّة يومي مصروف البال إلى أمر الجارية وفتاها وشأن صديقي فيهما . فلما كان من الغد جمعتُ عزمي وأُعرضتُ عن الدعوة وعدتُ إلى الصلاةِ فقضيتُها واستغفرتُ الله .وكان آخر عهدي بصديقي . فقد سألت عنه بعد أيام فإذا هو قد أخذ جاريةً جميلة وترك أهله وذهب إلى حيث لا يعلم أحـد . . .

فذهب ذلك بما تصنَّعْـتُ من العزم ، وكان البعـث .

حديث المزح والجد

حدث رجل من الأنمار قال :

كانت ريحانةُ من سبايانا . سباها في بعض غزواتنا بالحيرة رجل منا يقال له لبيد، وهي لا تزال صغيرةً مُرْسَلَةَ الشعَر. فنشأتْ فينا . وكانت حسناء غريبة الحُسْن ، كأنَّ في عينيْها ناراً وبفيها ماءً حميما . فارادها لبيد في يومٍ من أيام الربيع ، وقد تبرَّجتْ كُعوباً ، فدلَّتْ ولاعبتْه ثمّ امتنعتْ وقالت : ظمأٌ على ماءٍ مرقوب خيرٌ من ارتواء . ولم تزل به حتى كاد يُجَنّ . ثمّ اقبلتْ على شبان الحي ، وكنتُ منهم ، غفر الله لنا جميعا . فكانت تعاشر الواحدَ منّا ، ثمّ

تهجره إلى غيره . وكانت في ذلك تُلقي لنا فنبسط الايدي ، فتُمسك عنا وتُولِّ . حتى تهيَّجْنا كغبار في يوم اعصار . وهو في هيامه بها لا يرى من ذلك شيئاً . وانكرَتْ نساءُ الحي فعلَها . فجِئْن لبيدا ، وهو يومئذ لا يزال على عقله ، فقلن له : إنا خشينا ان يكون من ريحانةَ فتنةٌ . أفلا تمسكها عن فتياننا ورجالنا ؟ فغضب لبيد وقام يريدها بعصاه . فقالت ودلّت واخذته من يده : لو أعتقتني لكنت لك . ولكنك مولاي ، فليس لك من نفسي . فظنّها لانتْ ومالت . فاعتقها . فامست ولم تصبح . فجُنَّ لبيد . فهو إلى اليوم في أهله بوادي حرّان ، يخرج كل يوم إلى سَمُرةٍ هناك ، فيجلس ويقول في ريحانة من الشعر ما لا يُفْهم ولا يُحفَظ . ثمّ يضرب على الارض بعصاه ثلاثا ثمّ يأخذ غصنا من السمرة فيجعله في فمه ، ثمّ يقوم فيسعى بين السمرة وبيته سعي الحجيج بين الصفا والمروة ، حتى

ينفضخ كالدلو ويسقط لوجهه . ويحتمله أهله إلى بيته فينـــام .

* *

وكانت ريحانةُ تحدثنا فتقول : انا آخرة قومي . وقد اكلتهم النارُ جميعا . كانوا من وُلْد البراء بن كيسان . وسكنوا العمان ثمّ خرجوا عنها بعد أن اصابت بيوتهم نار ذهبتْ بأكثرهم . فجاء مَنْ بقي الحيرةَ ونزلوا بها فاقاموا . ـ فانهم بها اذ عزونا قِبَلهم ـ فاوقدنا نارا فأصابَتْهم فاتوا بها جميعا . وأَدْرَكَها لبيد فوقاها النار وملكها . وكانت تحدث انه كان لقومها عن أساف ونائلة غيرُ الخبر المعروف لا يُشْرِكون فيه احدا . وتقول : ولم يبق اليوم من يعرفه غيري . فهو هنا مكنون إلى يوم أموت . وتجعل يدها على صدرها فكأني بنهدَيْهَا قد قاما واضطربا كرمال الكثبان نَشْأةَ الريح .

ولما حال الحولُ على جنون لبيد حججتُ إلى الكعبة . فلما انتهيت من مناسك الحج كرهت ان يكون حجا بلا زيارة . فاني لمنطلق من مكة اذ رأيت على طريق المدينة بيتا منفصلا عن البيوت ، والناس بين داخل وخارج . ولم أكن رأيته قبل ، فجئته ، فإذا حانوتٌ وعربدةٌ وغناءٌ ونبيذٌ وخنى . فانكرتُها وانا على حالي تلك من العبادة . وبينا أنا واقفٌ راحلتي هناك ، اذ مرَّ بي رجلان منصرفان من الحانوت وهما في نبيذ كثير . فقال أحدهما ولسانه كالقصبة في الريح :

قفا نبْكِ من ريحانة العين والحشى .

وقد ذهب عني شطر البيت . فقلت : لا أبرح البلد أو أعلمَ جليَّةَ الامر . فعقلتُ راحلتي ودخلت . فإذا هي والله ريحانتُنا تغنّي وتُلْقِي إلى الناس فيبسطون لها الايدي فتُمسك وتُعْرِض ، كما كانت تفعل بنا .

فخرجْتُ لساعتي وانطلقت لشأني . وكان آخر عهدي بها في شبابها وشبابي .

* *

ثم طواني الدهر وذهب اترابي في الحيِّ ممن يعرفون ريحانةَ جميعا . وإنّا انتجَعْنا قِبلَ نجْد . فنزلتْ بنا امرأةٌ فاضافها بعض الحي . فسألتُ عنها . فقالوا : انها تقول ان اسمها ريحانة . فأمرْتُ ان تأتيَني فجاءتْ . فكانت هي والله . وكانت من حيٍّ إلى حيّ ، لا تسكن عن الترحال . تحدَّثُ عن ابي هريرة ولا تبكي ، وتقول : لقد جمدَتْ عيني . وهي يومئذ قد ضرب الشيب في شعرها ، وذهب حسنُها الا نورًا منه في العين ، واصابت وجهَها الاخاديد. وكانت لا تزال كعهدي ظريفةً لسنةً طيبةَ الحديث . ولكنّها اصبح بها كالبحّ ، تقول فكأنما تبكي ، وليس على وجهها الا نفْسٌ مسلمةٌ راضية .

وكانت لا تتحدث عن ابي هريرة الا كان آخر
قولها : رحم الله ابا هريرة .

حديث التعارف في الخمر

« رُدّا عليّ الكأس انكما
لا تدريان الكأس ما تجدي »
« أبو نواس »

حدثت ريحانة قالت :

كنت في مكّة . فذهبت لي بِها شهور في حانوتٍ. ثمّ كرهْتُ الخمر وعربدته والغناء وما كنت اصنع منه ، والكعبةُ على كثب تعْتبِروتُصلّيً. فنفرْتُ اياما ، وصاحبُ الحانوت غاضب عليّ ، واصحاب الليل والخمر اذا جنّ يسألونه عني . فلما كنتُ في بعض لياليّ هدّني أرقٌ فلم اصبر عليه . فانسللت فخرجت اريد المدينة . وكانت الساعة الغلس . فسرت راجلة حتى ذهب بعض يومي ، وادركتْني الهاجرةُ وعقلني النصبُ . فحامَتْ عيني . فلاحَ لي وراء جبل دخانٌ كلا



دخان . فجهدتُ وقصدتُ اليه . فإذا حيٌّ الانمار الا اهلَ لبيد . فنزلتُ بهم فاكرموني على انقباضٍ فيهم . وجاؤوني بطعام طيب فأكلتُ وماء كالبرد فشربْت . ثم اضطجعْتُ فنمتُ نوما طويلا .

فلما استيقظتُ كان الليل قد اسوّد . ونظرت فاذا القوم في شأن لهم وقد ملكهم . فصحت بامرأة رجل منهم كان يسمّى سعدا ، وكانت مقبلة على قِدْرٍ وقد ادخلت يدها تخرج منها الطعام ، فقالت : نزل بنا الليلةَ ابو هريرة ، ونحبُّ ان نكرمه . قُومي يا هاته فسيكون منه كالمأدبة . فقمت فرأيت رجال الحيّ وقد اجتمعوا الى رجل لم اكن اعرفه ، وهو يحدثهم ويضحك ضحكا كثيرا . فرأيته سكران وكان كذلك

ثم تهيأ الطعام ، فصُفِّف على بساط . وجُعِل عند سمرة هناك . وجلس الرجال فتأخر عنهم الرجل ، وقصد إلى راحلته فأخرج زقا من الخمر وجاء به القوم .

فقالوا جميعا : آخفيتَها ضنًّا ؟ قال : بل خوف ان تتوقعوا فَتَذْهبَ المتعة . وجلسوا جميعا يأكلون ويشربون حتى ذهبت لهم ساعةٌ ونيران الحي تخبو واصواتهم تعلو . وأهمّني ان يكونوا في لهو وابقى في قطعة من الليل . فقمْتُ كالوالهة فسعيت ، فوقعتُ على الزقّ فصببت وشربت اقداحا . وصاح بي بعضهم : حسب الانمار لبيد . وقام يريدني وقد اخذ منه الخمر. فقام له ابو هريرة ومنعني عنه وقال : دعوا الجارية تشرب . ثمّ دنا مني ولان وقال : ما اسمك يا هاته ؟ قلت : ريحانة . قال : انه ليس فينا الا حفِيٌّ بك محبٌّ لك. فنحن نشرب ونحبّ من يشرب . ألك في قدح آخر ؟ واخذ الزق مني كانما يريد ذلك . فإذا هو قد رفعه وصبّه على راسي . فصحت وارتعت وقال : انظروا ريحانة الخمر . فانطلق اصحابه يضحكون مني . وهممت ان الطم وجهه لطمةً تذهب بخمره . فما كدْت أهمّ به حتى اخذني واحتملني وانا اضطرب ،

فجعلني تحت سَمُرةٍ إلى الارض وانصبَّ عليَّ . فوجدته صاحيا من اشدّ الرجال . ثمّ شدّني اليه حتى صرت منه . وقام عنا الرجال . فجعل يرقُّ ويحدثني ويقول : ما كان احسن انصبابك على الزق . إلى ان طابت لي ريح الخمر في ثيابي .

فلما اصبحنا أردفني إلى مكّة . فلزمته ثلاثاً ثم رجعْتُ إلى الحانوت وقد طاب مقامي . رحم الله ابا هريرة .

حديث القيامة

«متى كانت الحركة بشوق طبيعي لم تسكن البتة»
(ابو حيان التوحيدي)

حدث ابوالمدائن- وكان من خاصة ابي هريرة - قال :

وقف عليّ ابو هريرة يوماً فقال : ماكسبْتَ في يومك ؟ وكان لا يلقاني الا قال لي ذلك فاكرهه منه. فقلت . الا تستحي ؟ الا تجدّ في قولك ؟ لم أكسب شيئاً . قال : لي عليك اذن ان ترّحب بي ؛ فقد جئتك مبتاعا . كم عندك من الشمَع ؟ قلت : لا يزيد على الستّين .قال : هي لي كلها . فقمت وأحضرتها . فأخذها من يديّ وقال : اما الثمن فهو لك عليّ قضاءً، كصلاتي منذ سنين . فقلت : يا رحمك الله . أو

جئتني منتهبا أم مبتاعا ؟ قال : ستغفرُ الله . بل مبتاعا على سنة الله . ثمّ انصرف وتركني في حُمَّة من الغضب، وكنت لم ابعْ شيئاً يُعَدّ في يومي . فلما كان المغرب جعلْتُ أتهيأ للانصراف . واني لمقبل على الباب أغلقه اذا هو مقبلٌ إليّ . فقلت : لقد حلّ أجل الدَّيْن . فضحك وقال : لقضائه اتيت . موعدك العشاء بضَيْعَتي . ثمّ تجاوزني في إسراع المهموم المُلِمَّةِ اشغالُه . فقلت : لا ينتهي والله . ثم لوت .

• •

وجاء العشاء فركبت فرساً لي يُحْسِن السير على ظلام الليل . وخرجت إلى ضيعة ابي هريرة . وكانت بنجد لا تصلح لزرع ولا لغيره ، وفيها عِضاهٌ كثيرة مبثوثة . فلما قاربتها القيْتُ البصرَ فلم أرَ نورا فظننتُه اراد بي عبثا ومزاحاً ، وهممت ان ألوي الفرس ، فاذا هاتف يهتف بي . فقصدت اليه حتى وصلته .

وتوضّحت المكان فاذا اشباح نفَرٍ جلوس وشيءٌ كالهاوية عليه صخور مشرفة . وكان كَهْفًا . وتكلمْ ابو هريرة فقال : ترَجل . ففعلت واخذ فرسي شبَحٌ ودخل به الليل . وقلت : لن تنتهي والله . ما هذا ؟ قال : أنْصِتْ فستعلم الامرَ ما فيه . قلت : ومن هؤلاء ؟ قال : جماعة من الاخوان يسألون الظلام . وهاته ريحانة . واذا بجانبه امرأةٌ مضطجعةٌ على صخرة ، مطرقةٌ كانها تصلّي وهي متعلقةٌ به كالغصن باصله . فلم أرَ الا الصبر .

• •

ومضت ساعة لم نقل فيها شيئًا . ثم تكلمتْ ريحانةٌ فقالت : يثْقُلُ الكونُ اذا همّ ان يكون . وتكلم آخر فقال : ولو لم يكن قبيل خلقه ثقيلا مُرْهقا لمَا خُلق. فقال ابو هريرة : لقد كان حينئذ كالالحان قبل الضرب . وليس ابدع من الاوتار تُجَسّ . ثم سكتوا

وحدثتُ نفسي اني وقعت في مصابين او سكارى . ومضت ساعة لم يعودوا فيها الى الكلام ، وطال عليّ حتى كاد يذهب صبري . وبينا أنا كذلك اذ هتف مزمار همْساً رقيقا نائيا كأنه الذكرى تتجمّع في اعماق النفس . ثمّ تعالى فاذا له صلصلةٌ وزفير وانفلاق ودويّ . وفيه إلى ذلك تئنٌ كأن الريح تحطّه وتُعليه . ثم جُنَّ واشتدّ وقامت اليه مزاهرُ ودفوفٌ وصوتُ مغنيّة ، فراحت جميعا في الظلام كالبرق . وكانت المغنية ريحانة . غنّت :

أسافُ ونائلةْ   أوقدا جَذَواتي
أسافُ ونائلةْ   وَانفيا عبراتي

وسكَتَتْ . فشدّ عليها المزمار والمزاهر واجتمعت إلى ذلك اصواتُ نساء كثيرة قامت من ارجاء الضيعة فردّدن غناءها . ثم عادت ريحانة تغني وتشدّ عليها المعازف والمغنيات :

ان نفسي لحميمُ   رفرف اللحمُ عليهْ
ودعَاهَا يَا سقيمُ   ملك العجزُ يديهْ

أسافُ   ونائلةْ
أوقدا   جذواتي
أسافُ   ونائلةْ
وانفيا   عبراتي

هذه الدنيا إناثٌ   كلها تدعو الذكورْ
يُسْمَعُ منها لهاثٌ   بدؤه بدءُ الدهورْ
أسافُ ونائلةْ...

كم اردنا الروحَ فَيْضًا   جارفا صخرَ السدودْ
واثرنا النفس غيْضًا   داويا مثل الرعودْ

أسَافُ   ونائلةْ...

وأكلنا الروحَ حِسًّا   وانفجرنا للهوى
ثم خفنا منه مسًّا   فجعلناها هوا

انمـا الجـن بلايــا	وسقــام في سقـام
ما لمائـي فـي الموايـا	ذاهـب مثل هيامي
غار فعلي في النوايـا	كجبـال في ظـلام

حتى استوفتْ شعرَها ثم سكنَّ جميعا .

* *

ثم لم تلبث ان اشتعلَتْ خمسون او ستون مشعالا على مسافة في صفٍّ واحدٍ قِبَلَنا . وكانت من الشموع التي اخذها مني ابو هريرة . ثم تقدّم منهن ما ينيف على العشرين . فاذا عليها وجوه صفراء مختلجة كانها الموت وعليها كوضح الابتسام . ثمّ وقفن فخرجت من بينهن اثنتان وتقدمتا إلى شيء فاوقدتاه ؛ وكان حطبا مهيئا . وجعلتا تطوفان به كطوافنا بالكعبة . فلما زفر واحمرَّ اندفعَتا ترقصان كأنما اخذهما دفقٌ دافق . وكانتا ترقصان كالسنَة النار فهما خارجتان منها

عائدتان اليها اشدَّ حُمْرةً منها . وكنت انظر إلى نهودهما فلا النهد يقر لي ولا اليد تنفصل عن النار . فارى النارَ ذكرًا به لوعةُ الصادي . وصاحت ريحانة فالتفتُّ فاذا هي تتململ كمن اصابته حمّى ، فيشدُّها ابو هريرة شدًا ويقول : أطفِئيها والاّ أطفأتُك . ويقبلان على الجاريتين الراقصتين حتى اراهما جاحظين .

ثم اسْمَعُ الاصواتَ وقد قامتْ ثانيةً بأساف ونائله ، ذكّيا جذواتي . واتّقَدَتِ النيرانُ على قوْسٍ فعددْتُها سائرَ الخمسين او الستين . وتطاير الجواري كالشُّعَلِ من ورائها وطفقن جميعا يرقصن والغناء معهن كانه دماء تسيل . ثمّ انصرف اليهن من الظلام فتيان . فاقتفوهن وحاموا عليهن حتى رايتهم كالسافيات تنفضهن الرياح . وعاود رقصَهم عارضُ جنونه وهم ازواج . فكانما ذهبتْ رَعدَاتُهم بارواحهم وفقدوا الوصْل ، فتفرقتْ من اجسادهم اعضاؤها ومضتْ سبيلها سكرى ، وكانت قبلُ جماعةً ذات الفة ،

فتفرّدتْ وانقضى العدد ونفر العضوُ اخاه ؛ فكـأنه يطلب ذاته ان يفنى بها . ثم ادرك الفتيانُ الجواريَ فانقضى عنهم عزيف الحَوْم ؛ وكانت الاصوات عند الردّة ؛ فلانوا حتى كأنَّ الماء يجري .

وبينما هم كذلك اذ خيّلت السماءُ وهبّ نَفَسٌ من الريح شديدٌ سجدت له النيران وكادتْ تطيرُ الجواري . ثم هزم الرعد هزيما رائعا ؛ وعصفتِ الرياحُ فانسابتْ ألسِنةُ النيران على الارض ؛ فادركت بعضَ العضاهِ فاتّقدتْ فانتشرتْ في جميعها فصاح الجواري والفتيانُ جميعا . وصاحت ريحانةُ وقامت قيام النائمة لُدغتْ وانحدرتْ إلى النار . فوثب اليها ابو هريرة فادركها وقد جاءتْ نارا وهمّت ان تلقاها . فحضنها عنها وقال : لأُعلّمنّكِ الصبر على النار . ثمّ أزفّ بها فأخذهما الظلامُ عن عيني . فاسمع وقعَ فرسه منحدرا كالصخر . واسرعْتُ إلى فرسي وأنا ذاهل عن الجواري وصحبي . فركبته وارسلته ، وبين اذنّي

زفير وصياح وصهيل خيل فزعة ؛ والوهج على ظهري . فما رَدَّ عليَّ عقلي الا بفناء بيتي .

وكانت ليلة شديدة .

* *

فلما اصبحتُ أصبح روعي غضبا على ابي هريرة وخوفا على الجواري وصحبي . فجئته . فإذا بيته انقاض سوداء قد اكلت النار اوصاله والقت احجاره كالعظام . وكانت لا تزال بقايا دخان خارجة منه بيضاء في الريح البارد ، وابو هريرة واقف عليه وقفةَ المعتبر. فاستلطفت له وقلت : الله اكبر . أو نارٌ هنا ايضا ؟ تالله انه لمن عقاب ربّي . وفاض حزني فبكيت . فاقبل عليّ وقال : دع البكاء وخذ فيما اقول لك . ثمّ اخذني إلى قطعةٍ من جدار طريح . فاجلسني وجلس وقال وابتسم : لم أركالاصنام ظاهرُها الروحُ وتملِكُ الجسد . فاردت ان اثنيه عما اخذ فيه من مبهم القول فقلت :

ماذا صنعت بعد الانصراف من الضّيعة ؟ وأين الجواري والفتيان وصحبنا وريحانة ؟ وما خبر البيت ؟ قال : ملكْتُ ريحانةَ عن نفسها فاردفتُها إلى مكة . وانطلقت بها في الليل يحجب عنها جسدَها . فما كدت ابرح الضيعة حتى جاءت المُعْصِرات بالانواء . وكان البرق يستطير فتنطلق السماء وركامها والاشجار والجبال وتقوم عصا الطريق فترتمي جميعـا على وجهي ، وسيل الماء يكاد يجرفنا والفرس . وتهيّج الكون حتى كأنه جهنم الشياطين ولا نار . وكانت ريحانة تقول : يا ابا هريرة ذهبت ناري . وتبكي . وكنت لا اعي . فالمطرُ فالريحُ فالشدةُ فأنا املأُ ما اكون .

وانتهينا إلى حانوتها فالقيتها . واتيت بيتي : فاطلقت الفرس بالفناء ودخلت على امرأتي . فإذا هي لائذة بالسراج تطلب أنسَه . فقالتْ : لقد بقيتُ اتوقّعك حتى ذهب التوقّع بالامل . وها ليلتي جاءتْ .

قال ابو المدائن : وكان ابو هريرة لا يعاشر امرأته ، وكانت تقول : احببته حتى جعلتُهُ نوراً في ظلامها نفسي على ما فيه من الشرود . قال ابو هريرة : ثمّ قامت تريد الفرسَ أن تُكنّه . فقلت : لا تفعلي . فسيفعله بعض الغلمان . وهات حدثيني . وقد اعجبني منها ان ردّت اليّ بعض ما احملتها سنين . فلم تُبالِ وقامتْ إلى ما تريد . فلما توسّطتِ الفناء انشق فَلَقُ الصاعقة فأخذَتْها . فرأيتُها وقد اشتعلتْ كانها ملَكٌ من نور ، وقفز الفرس رَوْعا . ثم نظرتُ فإذا الامر ناقص ابتر . ووددتُ لو احترقتِ السحب ، وانما كان البرق ينبرها . فقمت إلى بيتي وأحرقتُه وجلست انظر إلى النار في الماء والماء فيها . فرمادها الآن تحت الخراب وقد اصبحت بين ما اردت لها اهلا من الملائكة والمخلدين. ثمّ قال : رحمها الله . لقد اردتها على الجبال ومثل ما شهدنا البارحةَ من الجهاد وان تمشي على دهرها كالفلك تسير آمنةً والهاوية . فقصرتْ عن ذلك . فلما

خفت عليها اوقعتُها في روحها . وقال : وان مثل كل جهاد لكمثل مصيرها . وينفضه البكاء .

فرققت له وبكيت وقمت به إلى بيتي . فامضى به اياما . ثم انصرف فلم اره دهراً . وسألت عنه فقالوا : انه وريحانة . . .

حديث الحسّ

حدثت ريحانة قالت :

مرض ابو هريرة حتى اشفقتُ عليه. وكنت لا أبرحه ساعةً وابكي واوجع لألمه حتى كأني منه. فيهمس : ابْكي ما لذّ لك البكاء. ويومئ أنْ ضُمّيني اليك . فاضمهُ ضماً خفيفا ، فيلقي باذنيّ كالحنين ويقول : وجعت ان لسْتِ في مثل علتي .

ثم ذهب عنه بعض مرضه فدخل إلى الابلال . سالته : هل عاد لك من الصحة ما كان ذهب ؟ قال : انه قد استوى عندي ان تذهب أو تبقى ، بل كدت اختار العلة .

يمرض الناس يا ريحانة فيطلبون الشفاء ؛ فيثقل المرض فيضني فيذهب سدى . وقد طلبت الشفاء مثلهم ساعة مرضي الاولى . ثم وجدت في علتي ما لم أجده في الصحة وتمّت لي بها حياتي ؛ فخشيت ان تعاودني الصحة والاستقامة فاموت . كذا نحن . ولعله لا يبلغ العلةَ من الناس الا القليل . قلت : وهل في العلة غير الامحال وذهاب الماء يا حبيبي ؟ قال : لا أدري ؛ فقد يكون . وقد تكون العلل من مُحْيِيات الحياة . بل انظري . ـ قالت : وكان في صوته كصدى غيب بعيد ـ اني أجد في جسدي وهو عليل كيف يرق حتى كانه عود كلما جسَسْتُه أنَّ ؛ وكيف تدق الحاسّةُ وتحتدّ . وقد ذهبت لي والله ساعات وانا اقفو اثر الروح تنتقل من يدي إلى رأسي أو منه إلى صدري ؛ وتتردد على الاعضاء والقلبِ والامعاء تردد الفجر ؛ فكاني أسبح في دمي يجري . ولذّ عندي ؛ فيلذعني الألمُ في كتفي أو صدري أو رأسي فانا آكل حنظلا لا

كحنظل الناس ؛ فيه مرارة وحموضة والوان مختلفة ونار تضْطرِمُ وتحسنُ في العين . فكأنْ مقدار القوة والحياة يزداد للعلة ؛ وكأن قرب الفناء خلاّق .

ترين ؟ الا تكون الدنيا من خلق الالهة عند النزع يـا ريحانة ؟

ثم تنفّس فمدّ نفَسَه . ثم قـال :

وددت من زمن بعيد لوأني عُلِّقْتُ بين السماء والارض ؛ أو اني جلست على قمّة جبل وقد طلّقتْه الارضُ فطار . فلم اصب ذلك الا في علتي تفكّ الجسدَ وتميّزُ الاوصالَ فيخف اللحم والدم فكأني في الخُلْد . انه لا تكون الحياة أبدعَ مما تكون بين العدم والكيان ، ولا أقربَ من طمأنينة السعيد .

قالت ريحانة : ثم ابتسم وسكن . فنظرت فإذا دموعه كقطر الندى على خده وقال : آلمني ان يكون

نصف متاع الدنيا في حال لا يصيبها الانسان الا حينا بعد حين ، اذا سَلِمَ من كثافة الصحة . وضممتهُ اليّ وضمَّني اليه . رحم الله أبا هريرة .

حديث الوضع

« ... لأنه قد صحّ ان شأن الحس ان يورث
الملال والكلال ويحمل على الضجر والانقطاع »
(أبو حيان التوحيدي)

روي عن أبي سعد ، قال : حدثت ريحانة قالت :

لما ذهبنا الى المدينة سكنّا بيتا منعزلا عن البيوت ، نشرف منه فتلقانا مقبرة المدينة. وكان أبو هريرة يقول : لا يطربني شيء مثل الزهرة على القبر ، ولم أجد مثله الا عندَ بعض الناس ، تركب احزانُهم مركَبَ الهزل . فاقمنا بذلك البيت شهورا .وكان ابو هريرة في اولها يكثر من الانصراف ويدعني بالبيت ، فلا يردهُ علي الا الغَداء أو العشاء . وكنت كلما دخل البيت وجد العنبر والمسك والعود قد نُشرت فيه ، والوانَ الطعام



قد صُفِّفَتْ ودعت بالافواه ، وأطيبَ النبيذ والريحان قد تضوّع وفاح ، ـ فيضيءُ انشراحا ويصرف سروره إليّ ويقول : لقد علّمْتِني الطعام ما لذته وما سكرته . فهل علّمْتُك يا ريحانة الجوع ؟ فاقول : نعم . ولكني مكتفية بك . ونجلس فأغنيه ويأكل ويسقيني . وكان كلما اتى طعاما أخذه خشوع غريب . وسمعته يقول يوما وشواء بينِ يديه يتقاطر : ما أعظمَ الشواء يستحيل إلى دمي . ثم تأمله طويلا وقال : هاته متع الدنيا . وكنا كثيرا ما نجلس للطعام بفناء البيت والشمسُ علينا . فيعبث بكاسه في النور ويقول : يا لهفي على خمري تغشاه ظلمات الاحشاء . ودِدت والله لو تبع البصر ضياءه فيها . ثمّ يشرب قدحه صبأ فيغيب بصره وكأنما جرّه النبيذ إلى غيب احشائه . وكان اذا أراد الطعام تطهّر له كتطهّره للاحرام .

ثم قل انصرافه فلم يخرجْ الاّ بي . فكان ينطلق

بي إلى شعاب بضواحي المدينة . فنسير حتى يقعد بنا التعب فيحدثني وأحدثه . وقد اراني وأباهريرة في بعض سيرنا بتلك الشعاب فاسمعه يهازلني القول ويضحك وعليه سِمةُ الفرح بالحياة .

قال الراوي : ثم سكتتْ ريحانة وتبسمت وشخصتْ بعينٍ عبرى .

* *

قال : قالت :

وخرجنا يوما وقد أربعْنا ـ وكان الهواءُ كدمعة عذراء والسماء لا ريبَ فيها ؛ وعليه ثيابُ وشيٍ وفضةٍ كأنها كواكب الصيف ، وعليَّ من الحرير شُفُوفٌ تجري ـ فذهب بي إلى مرجٍ مزهارٍ. فاجلسني وجلس على الكلأ الريّان . فاطرق ساعةً فقال : أتعلمين يا ريحانة انه في بعض احياني

تراكَضَ لَدَى قلبـي   خيولٌ كرُوَى السِّحْـر
يدوِّي عصْفُها الدنيا   ويذرو جبلَ الصَّخْـرِ
فيشتـدُّ على روحـي   جُموحٌ في دمي يجـري
أمرّ من ضنى الحُـبِّ   وأدهى من عنا الصبـر

ثم لوى فاقبل على الاعشاب يضرب فيها بيديه ويستاصل منها قبضة بعد قبضة ، ويقول : انظري كيف أخذَ العُشبُ من يدي ؛ فهي كالدابة الآكل . والله كرهتُ طعامَ الانسان وحُبِّبتْ اليّ الانعامُ في مراعيها تَرعى . فقلتُ : وهل من سبيل ؟ فقال : نعم. ومرّتْ يداه على وجهي وصدري حتى أخذتا خصري ، وكدتُ اتَّقِدُ وقلت : الا تستحي . قال : بلى . ثم قام فعدنا إلى البيت .

وكانت لنا أيام لن يسقط ذكرها عني .

ثم أغمَّ وحالَ كسماء خريف . وقال : اني أجد كهمس المتناوحة العاصفة يا ريحانة ؛ مثل عَفْر السحاب ، يُسْمَع ولا يُرى . فجَهدتُ ان اصرفه إلى سابق فرحه بالحياة فقال :

مضى دهـرٌ بـه كُنّـا   وجدنـا جِـدَّةَ العمـر
وشـاخ النـورُ ريحـانَ   وقـرّت خلجـة الفجـر
فينتـاب سنـا عينـي   ظـلامٌ كعمـى الدهـر

دَعِي الذكرى ريحانة فقد قتلْتُها في نفسي ، وليس اقبح مما يدوم . انظري مغرب شمسك اليوم فلن تَرَيْ أبداً مثله . وقال : آيةُ جمالِك ما لم تكوني ولن تكوني . فرأيتُه سَئِمَ مضجعي وقلت : آثرًا بعد عين ؟ قال : كلا . ولكنكنَّ معشرَ النساء كالانبياء ، اضل الضلال عندكن وحدانية المتوحِّد . وسكت ساعةً ثم قال :

وان لك يا ريحانة سابقات . فهل لك في قصة احبهن اليّ . قلت : هات خبرك . قال : لم تقبل عليَّ من النساء الا جارية واحدة في شبابي . فقد كنتُ أطوف بالكعبة كل يوم ، وأقف على الحجر الاسود استغربه واستَغْمِضه . فارى جارية تخرج إلى شأن لها من بيت هناك . تفعل ذلك كل يوم وتستَرِقُ النظَر اليّ . حتى ملكَتْ بصري واصبح الطواف والحجر الاسود سرابا في عيني . وتجرَّأتُ يوما ، فأومأتُ اليها ن تلقاني عند الصفا ليلتنا تلك . فلما جاء الليلُ سبقْتُها اليها . فلما أحسسْتُ بها جعلتُ أترنَّم بشعرٍ صنعتُه فيها وأنا شديد الزهو به فهو أول شعري . فلما وقفَتْ عليّ سلمْتُ فلم تردّ . فحسبْتُه خفرا وقلت : هذا من شأن العذارى . تبسَّطِي يا حسناء . فأومأتْ بشيء فدنوْتُ وأزحْتُ جلبابَها وكنت لم أرَها الا تحته . وتبيَّنْتُها فإذا هي من أقبح عباد الله صورةً وإلى ذلك صماء بكماء . فقلت : لقد ضاع شعري . وانصرفت

ولم أقل بعدها شعرًا في امرأة قط . فاحذري يا ريحانة ان تكوني صماء لا تعي او نبيا ذا جَنّة .

ثم أخذَتْه نوبةٌ من الغضب فصاح بي حتى ارتعْتُ : أكلما تمرَّد شيطانٌ في انسان قامَتْ له امرأةٌ نبيا ؟ أو كلما قامت في قلبٍ أعاصيرُ جعلَتْها النساءُ خطوطا مستقيمة ؟ دعيني يا هاته فقد كِدْتِ أن تقطعي عني سبيلي . ثم سكت فهدأ . فقلت : لا تصطنع . فقال وأقبل عليّ ودمْعُه يرفضّ : انت الحكيمة يا ريحانة ، فهو اصطناعٌ كله يريد أن يكون حقا ، وسيكونه . ثم جعل وجهه في نَحْرِي وقال : لو كان إلى النسيان سبيلٌ لكان رِيحُك أنساني . لكنْ هيهات ومع اللحم والدم والحس يجري الهوى فيها جُرافا ، علّةٌ في الانسان يلقاها هنا أو هنا . وضرب على رأسه وقلبه .

قال ابو سعد : سألت ريحانة : ما أغربُ ما سمعْتِ من أبي هريرة حينئذ ؟ فقالت : لم يكن يُغْرب وانما كان كلامه بعيد المَدَى . هذا حديث الابد :

خلونا ليلة بالمقبرة - وكانت مجلسَنا اذا هدأً لي - فجلست اليه وعلينا قمرٌ كالحرير ونسيم كالربيع ، وقد سقط عني كل جَهْد فانا كالصخرة الهاوية لا تنتهي . فقال : ما أحسنُ دنياك يا ريحانة ؟ قلت : ان تجتمع فيك ولا حصر . فامسك ساعة وامسكتُ واكلتُه فاكلني وافنيْته وافناني . ثمّ قال : أوَ هذا الابد ؟ قلت : نعم . وبلا قدم . قال : هيهات . قلت . ولكنّا دمّرنا القدمَ تدميرا . قال : بل حسبنا أنفسنا ، ولو انتفى القدم لانتفى الموت . ثمّ زفر وقال : واقصى الابد الفجرُ يا ريحانة . ودموعه كرجع الموج عن الصخر . ثم سكت وقال : لا خير في مائدة تجري من تحتها الانهارُ وعليها الوانُ الفواكه البِكر ، تُجْعَل لك وتُؤْذَنين بالجولان فيها ، ثم لا تُوَجَّلين فيها الا ساعةً

واحدة فلا تتُوقين إلى لونٍ منها . ثمّ قام فدخل البيت فجاء بخمر . فلم يزل بي إلى أن وجدت من خمره ما أزفَّ بي أرقص وأغنّي حتى ارتميْتُ من ذرى الجبال كراقصات الاساطير .

• •

وعادت ريحانة إلى حديثها . قالت :

وكنت اصبْتُ من معاشرته ما صار لي به كل شيْ وضّاحاً ، وتبرَّجَتْ لي به الدنيا تبرّجا أكثر النفس . حتى شرب المُفْرَدُ العدد ورأيتني نورًا مشاعا. فكأني البنيانُ ينفي أحْجارَه ورخامَه . اجعل الدنيا بوعائي فلا تفي واحب ان اقصُرَ النفسَ فتأبى . فلما تغير أبو هريرة ورأيته يتجمَّعُ ، أصبح مستحيلا عليَّ واختلفْنا .

وجاءني يوما فقال : اني راحل عنك . فقلت : وايُّ السبل اخترْتَ لي ؟ فقال : العقبة يا ريحانة . قلت : وما الراحل بك ؟ قال : كرهُ البيوت . - وقد

كان يدخل علي أحيانا فيقلب البصر في البيت ويقول : لقد سكنتُ البيوتَ من يوم خُلِقت ، فلم أصِب منها الا البابَ أعلمُ اني أدخلُ أو أخرجُ منه ، أو الجدارَ أعلم أنه يردّني لو طلبتُ الخروج منه ، أو السقفَ أخشى أن يقع علينا . وإنَّ من الخير والشر والسعادة والشقاء لكمثل بيت نسكنه ونحن نقول : انا وجدنا آباءنا فيه . فقلت : وقد كنتُ بيتًا فكرهتَه . فقال : نعم . ولو اكتنفتِني فاكتفيتُ بك اني اذن لجبان . وقد حذّرتُكِ ان تكوني جنّتي . فإن شئت يا ريحانة ان ابقى فلتفنيْ والا ارتويت . فادركت انه قد عاوده الجوْس . وكان شديد الكره للنزول يرتاد ولا ينزل ، ويقتله الطمعُ ويُحْييه اليأس ويخاف أن يستقرَّ الجهد وينقطع الشوق . فقلت : افعَلْ ما ترى . فقال : آخذ عصاي .

ثم خرج فإذا هو منطلق باحد مخنَّثي المدينة .

وكان آخر عهده وعهدي .

وقد ذهب فنَغَّص عليَّ ما جاء بعده من الدنيا فلم أجد بها طعاما بعدَه . وذهب الفجر بالابد .

لقد كان دائمَ التَّوْق إلى الشمس دائمَ الخوف من طلوعها . ويقول : ان استطعتَ فاجعَلْ كاملَ حياتك فجرا .

رحم الله أبـا هريـرة .

حديث الوضع أيضاً

حدث أبو هريرة في آخر عهده بالدنيا ، قال :

لقد وضعْتُ من الناس كثيرا وغلبْتُ نفسي عن كثير من متاع الآخرةِ والدنيا ، فلم يكن أشدَّ من وضعي لريحانة. وضعتُها كما تضع الحاملُ المُعْسر ؛ ولو بقيت معها يوما بعده لطرحتُها طرْحاً لا عناء فيه .

ثم قال : فانا منها إلى اليوم أعجزُ الناس عن الحـــب .

حديث الشوق والوحدة

« المجدود من يستنبط من بين الناس صديقا »
(علويه)

حدث أبو المدائن قال :

لم يكن أشدَّ شوقاً إلى صديق لم يُخلَق من أبي هريرة. كنتُ أقول في بعض الايام : عِمْ صباحا يا أبا هريرة . فيلقاني بعينين كأنَّهما الغيبُ ويقول : مَن أنت ؟ أو : ممَّن أنت ؟ ويمرُّ كالخيال .

حديث الحقّ والباطل

حدث معن بن سليمان قال :

كنت أنا وأبو المدائن وأخي حرب نجتمع في بيت أبي هريرة كل يوم جمعة عند الظهر. فنتغدّى ونتحدث ثم نخرج عنه فنذهب إلى المسجد فنصليّ .

فدخلنا عليه مرّةً فوجدناه بفناء بيته وقد بسط فيه فرشا خفيفا وجلس فاطرق وسجا . فسلّمنا وقلنا وقد أدرَكْنا فيه همًّا باطنا : فيمَ هذا الوُجوم ؟ وكنا نعلمه غريبَ الاطوار ينصرف إلى ما لا يخطر ببال . قال : اني فقدْتُ السماءَ وارتدّ عليَّ الهواءُ

رصاصا ، ونظرت فكلَّ نظري عن مدى العين وارتدَّ البصرُ ظلاما . الا تجلسون ؟ فجلسنا وقلنا : هوِّنْ عليك . فيمَ هذا الغمُّ كله ؟ قال : ستسمعون خبرا غريبا . هي أختي ، رحمها الله ، وقد ذكرْتُها .

ثم أمر بالطعام والنبيذ . فجاؤونا بمائدة عليها لحمٌ مشوي ورطب ونبيذ كثير . فاصبنا من الطعام وصببنا من النبيذ ، وهو مُمْسِكٌ لا يمدُّ يده إلى رطب ولا شواء ويشرب ولا يقول شيئاً . فلما فرغنا من الطعام ، وهو على وجومه كالممتلِئ بكاءً لا ينفجر ، ثقل علينا وأعْدَانَا من غمّه . فقلنا : قُلْها ، قد ضِقْنا . قال : هل تَعرفون للنار معنى ؟ قلنا : لا والله . قال : يرى الناس نيرانا كثيرة . ولكن أكثر الناس لا يفقهون . وللصاعقة ؟ ولظلمات القبر ؟ ولانهيار الصخور في الجبال ؟ وللرياح العاصفات هل تعلمون من معنى ؟ قلنا : كلا والله . أيُّ شيء هذا الكلام ؟ قال :

كانت لي بين السادسة والتاسعة من عمري أخت لم تعِشْ الا ثلاثا . وكنْتُ أحبها حب الشياطين للشر . وكانت ذات عاهاتٍ لا تدَعُها علةٌ الا اصابتها أخرى . وكانت إلى ذلك بكماء صمَّاء . أسألُ في ذلك فيقال : هو القضاء . وكنت كلما بكت بكاءها عطفْتُ عليها وحفَفْتُها ، فهي بكماء حتى عن مُطلَق البكاء تريده فتتوجّع ولا ينشرح لها . وكنت أرعاها فالهيها بما أتعلّم من الألعاب مع اترابي في الحيّ . وكانت أمي تنكرها وتقول : هي من سِقْط أو عبث الاقدار . فلم تزل كذلك ثلاثا حتى نزلت بها يوما علة ذهبت بعينيها ثم لم تلبث ان ذهبت بها ، فصحْتُ وبكيت وندَبْتُ وطال عويلي . وحسبته الشيطان وقالوا : هو الله .

قال معن : فقلت : هذا ليس فيه ما يُحْمِل مثلَ غمّك . فلا تجعل نفسك كالجبل يدعو الصاعقة

فإذا وقعتْ عليه ارتجَّ وأصْدَى . قال : لقد علَّمَتْني البكاءَ من القضاء . ثم صبَّ فشرب ثم انفجر فبكى حتى رأينا الدموع في لحيته . فرققنا له وقلنا جميعا : رحمها الله . وصب لنا فشربنا . وما زلنا كذلك نشاربه ويبكي حتى جاء وقت الصلاة . فقلنا : نذهب فنصلي فيذهب ذلك بغمك . قال : دعوني . نصلي أولا نصلي ونسعد أو نشقى هل ترون فيه من خير أو شر ؟ ثم قال : شرٌّ ما في الدنيا ان الحياةَ عبث . بل لا أدري . لعله خيرُ ما فيها .

• •

ثم قمنا إلى المسجد وجلس عنه يشرب فلا يُدرِك السكرَ ويبكي . وجئناه بعد العصر لننظر حاله ونصرفه عن خواطره ؛ وكان اذا وقع فيها طالت به أياما . فلما دخلنا لقِيَنَا بوجهٍ باسم وحالٍ قد انقلبت عن الكدر . وقال : ما شأنكم في الدنيا ؟ باطل أم

حق ؟ قلت : ألك في خمر عتيقة ؟ وكان لي منها دن جاءتني به قافلة الشام في يومي . قال : أمّا هذا وحده فلا . فإذا زدت عليه نارا توقدها ونشربُ فنعم . قلت : وجهنم ان شئت . قال وضحك : انت غِرٌّ يا معن . أتظنُّ بجهنم نارا ؟ الا وربها لو كانت فيها شرارةٌ لذهبَتْ هباء وبطل العقابُ . انما النار يا ابن سليمان من أمر الدنيا . ثم قام وهممنا بالباب فإذا هو يلوي ويقف . فقلنا : مالك ؟ قال : سترون . ثم صفق بيديه فاقبل غلمانُه جميعا . فجعل يسمى كلاًّ باسمه ويقول : اذهب يا فلان ، فأنت حر . حتى صرفهم واعتقهم جميعا . ثم اقبل علينا فقال : وددتُ والله من شدة القلب ما أبلغ به كَسْرَ الحياة حتى أراها حُطاما ، أو من الحكمة ما أقدر به على اللعب كالصبيان حتى تذهَبَ أيامي؛ أو من القدرة ما أُعْتِق الحياة كغلماني فتمضي .

ثم جلسنا الى الشراب ببيتي وأوقدنا نارا لظى . فلم يزل أبو هريرة يشرب ، عليها ويقول :

أنظروها تُرّهاتٍ لا تقِــرّ   وجهَ حقٍّ باطلٍ ليس يَبِرّ

كالحيـــــــاة

وغيره حتى كان الليل .

حديث الحاجة

حدث أبو المدائن قال :

كان أبو هريرة سرَّاقَ أرواح . وكان من المُولَعين بالصيد. يخرج فيرمي الرميَّةَ فيصيبها فيشرحها ويُلقِي بها ، ولا يأتي بشيء من ذلك إلى بيته . وكانت تأتي عليه أيام يقول فيها : لِمَ حُرِّمَ ان يُرْمَى الناسُ ؟ تُفْتَ والله ان أشقَّ منهم فانظر ما في امخاخهم وقلوبهم واحشائهم . ثمّ يقول ويشير إلى بعض عابري الطريق : أنظرْ إلى هذا . اني أراه سَلَبني حقي ، يمرُّ ولا اصيب ممَّا في صدره شيئاً . فاقول : وما أحوجك يا أبا هريرة إلى غيرك ؟ فيقول : لا أدري ، أو لعله ضيقُ

مخيِّس النفس الفَرْد . وقد احسد الصبيان حسدا
شديدا . اتذكر صِبَانَا ؟ كنْتُ أشهد سباقَ الخيل ،
فلا ينتهي السابق إلى القصب حتى أكون قد
استفرغْتُ في قلبي جهده وسرقت تعبه . وكنت
ألاعب اترابي في الحيّ ، فنكون ملوكا كملوك الروم
وطيورا وسباعا ورياحا عاصفة ونستوفي جميعَ ما خلق
الله . فكان يبلغ بي الودُّ والشوقُ مبلغَه ، حتى لقد
تشبَّهْتُ يوما ببعض قُطّاع الطريق ، فتلبَّسْتُ به ، فلم
أطلق أصحاب القافلة الا بعد ان عقلت رواحلهم
وشددت عليهم حتى بكَوْا وعلتْ أصواتُهم صياحاً . ثم
أفقْتُ فاذا أنا قد مزّقتُ ثيابَ أصحابي تمزيقا
وأوجعتُ أكثرهم ضرباً وشكَوْني إلى امهاتهم .

حديث الطين

«قلت : وما أكمل العقل ؟ قال : معرفة الانسان بقدرته »

(الراهب الجرجاني)

عن أبي هريرة انه قال

خرجت من المدينة وقد أخذتُ عصاي أتوكَّأ عليها فأُحملُها ثقلي. فتصوَّرتْ لي بكرٌ من الارض تدعوني. فطرحت ما كان معي وقد كسفَتْ عنّي لذتُه. ثم أوقعتُ بها رجلي فكانت كالخلق أوكالدهر. وهِمْتُ فلم ازل فيها كعروس ليلته حتى مضت لي أيام وأنا أطلب من الفاكهة ما لا يعرفه أحد وادعو الكونَ أن يُعَاد واغبط آدم وحواء. إلى ان تمّ علي انفرادي فصار لي الليل والنهار كالعبث ليس من ورائهما شيْ ،

واستوى ليَ الزمانُ فهو كالبحر الساجي .
أو كالابـد .

* *

رواه أبو عبيدة . وحدث بمثله ثابت القيسي وزاد عليه فقال :

وكان أبو هريرة اذ ذاك بكُرَاع الغميم : وادٍ ذي رمال بين الحرمين ، يقال إنه كان من أرض الجن لا تبرحه المُعْصِرات المُعمِيات الا قليلاً ، فهو شديد المراس لا يجرأ عليه أحد . فرآه به من أخبرني - وظنّه من الجِنّة - قال: رأيته وقد أقبل على رسم يلعنه ويلعن القرونَ الخوالي ويتفل كالشيطان . ثم أنشأ يجيل بصره في حيرة الفاقد صاحبه . ثم عمد إلى مكان فاضطجع .

قال ثابت : فذكرت الخبر يوما لابي هريرة وسألته فيه فقال : نعم . وقد ضقْتُ يومي ذاك ، فطلبتُ

فرجةً ، فقلت في آدم وحواء رثاءً وجئت به نساء حيٍّ كانوا بالوادي . فأبين ان ينحن به وقلن : هذا أبرد ما رأينا من الرثاء . أنت أحمق . فقلت : نعم . ونُحْتُ به وحدي ، فلم أجد والله أبردَ منه . وضحك أبو هريرة قال ثابت : لعله يريد حيًّا ونساء من الجان . أو لعله أنشأ الخبر إنشاءً دون مطابقة . فقد كان أبو هريرة لا يخطيء أمرا مما يُغَالِطُ فيه ، يُصيبُه فيغالط به ، كانما يكره أن يبوح بباطن سره أو يعلّمَه احد ، حتى اشتبه أمره على الناس . قال : فقلنا له : وما كانت حاجتك إلى رثاء الشيخ والعجوز ؟ قال : لانهما كادا أن يعلماني جهلهما الدنيا وبِكْرَ السبيل . فلما فقدتُهما عادَتْ تقودني السبلُ المسطورة ، ووقعْتُ في سابق قصتي ونفسي ، وكنت أريدُهَا عذراء لم يطأها واطئٌ ، فإذا هي عجوزٌ فاجرة .

قال أبو عبيدة ـ ولم يروه ثابت :

قال أبو هريرة : وجلست ذات يوم . وكان زادي قد نفد من امسي والهاجرةُ قد نشرَتْ جِنَّتَها على الارض ، فانا في صفاء الضحى لا يشوبها غيْمٌ وضياء النار . وكنت بوادٍ رماله كامواج السراب يركبها البصرُ فينساب وتكاد تشفّ . فما مضت لي ساعة في اطمئناني حتى همسَتْ ريح بمثل نجوى الانسان . ثم قويَتْ فذرَت الرمالَ فخفقَتْ لها على الارض كثوب خزّ . ثمّ زفرت فذهبَتْ بها كألسِنَة الافاعي . ثمّ اشتدتْ وزفرت فهي تمور كالبحر . إلى أن كشفَتْ لي عن رسومٍ بالية فيها جمجمة بالية . فذهب ذلك بوحشتي ونزَعَ فرحي وقلت : ما طلب الوحْشَةَ طالبٌ الا استيقظ له رسْمٌ دارس . فكأني أجده بقلبي .وكرهته فهممت ان انصرف . وكنت خرجت لامحو قصتي فاذا هي فيَّ من قَبْل آدم

لا تمَّحي . ثم انتشرتْ خواطري فاضطجعْتُ فأغفيت .

* *

فرأيت في منامي رُؤْيا لم أرقط مثلها حماقة وغرورا . رأيْتُ بلدا غريبا أهله حيناً كالنمل وحينا كالفيلة ، وهم يعجنون طينا ويجعلون الحجر على الحجر فيشدُّونه به فيتَّخذون صروحا . ومن بينهم جماعة يغنون شعرا يُوقِّعونه على احجارهم يرفعونها :

العقـــل ردًى ... والفكـــرُ سَقَـــمْ
والـــروح صدى ... روح العـــــدمْ
والفعـلُ بَقَـــــا ... والجَهْـدُ سلَــمْ
فلنبـــنِ بِنـــــا ... يَنْـفِـي العـدمْ

ومرتل يتلو بقراءة حمزة :

« يا أيها الملأُ ما علمْتُ لكم من إله غيري . فأوقد

قال أبو عبيدة - ولم يروه ثابت :

قال أبو هريرة : وجلست ذات يوم . وكان زادي قد نفد من امسي والهاجرةُ قد نشرَتْ جنّتَها على الارض ، فانا في صفاء الضحى لا يشوبها غيمٌ وضياء النارَ . وكنت بوادٍ رماله كامواج السراب يركبها البصرُ فينساب وتكاد تشفّ . فما مضت لي ساعة في اطمئناني حتى همسَتْ ريح بمثل نجوى الانسان . ثم قويَتْ فذرَت الرمالَ فخفقَتْ لها على الارض كثوب خزّ . ثمّ زفرت فذهبَتْ بها كـألسِنَة الافاعي . ثمّ اشتدتْ وزفرت فهي تمور كالبحر . إلى أن كشفَتْ لي عن رسومٍ بالية فيها جمجمة بالية . فذهب ذلك بوحشتي ونزَعَ فرحي وقلت : ما طلب الوحْشَةَ طالبٌ الا استيقظ له رسْمٌ دارس . فكأني أجده بقلبي .وكرهته فهممت ان انصرف . وكنت خرجت لامحو قصتي فاذا هي فِيَّ من قَبْل آدم

لا تمّحي . ثم انتشرتْ خواطري فاضطجعْتُ فأغفيت .

• •

فرأيت في منامي رُؤيا لم أرقط مثلها حماقة وغرورا . رأيْتُ بلدا غريبا أهله حيناً كالنمل وحينا كالفيلة ، وهم يعجنون طينا ويجعلون الحجر على الحجر فيشدُّونه به فيتّخذون صروحا . ومن بينهم جماعة يغنون شعرا يُوقّعونه على احجارهم يرفعونها :

العقل ردًى والفكرُ سَقَمْ
والروح صدى روح العدمْ
والفعلُ بَقَا والجَهْدُ سلَمْ
فلنبنِ بِنا يَنْفِي العدمْ

ومرتل يتلو بقراءة حمزة :

« يا أيها الملأ ما علمْتُ لكم من إله غيري . فأوقد

لي يا هامان على الطين فاجعل لي صرحاً لعلّيَ أطّلع
إلى اله موسى . واني لأظنّه من الكاذبين » .

فيرُدون عليه ويدخلون فيه من لجنهم حتى كأنّها
دويُّ السماء ترتَجّ : « فكذّب وعصى - (بنضلدَكَمْ)
- ثم أدبر يسعى - (بَنْهَرّ تلغَمْ) - فحشر فنادى - (برْ
آنهَنْدَمْ) - فقال أنا ربكم الاعلى » .
فلما استيقظتُ قُمْتُ إلى أحياء العرب فبقيت فيها
سنتيـن .

قال أبو عبيدة : ولم يذكر أبو هريرة معنًى لِمَا
ورد ثِنْيَ الآيةِ من البربرة ، تنزّه كلامُ ربّي عن رطانة
العَجَم . وانما هو الشيطان في النوْم ألـمّ .

حديث الكلب

حدث كهلان ـ وكان من صعاليك العرب وشِدَاد لصوصها ـ قال :

اني لعلى بعض الطرق انظُرحيًا اوقافلة أُصيب منها اذ اشرفت عليّ قافلةٌ كانها ثعبان. فهي في عِدَّةٍ لا أقدر عليها . فقلت : أُرجئها إلى الليل . ثمّ ركبْتُ ونزلت فقلت : ضالٌ يسترحم . وعانقت اوّلَ مَن لقيتُ منهم ودفعْتُ الدمعة . فرقّوا لي وانهال عليّ الطعام والشرابُ وكنتُ ممتلئا فتحمّلتُ ما لم احتمل مثله قط . ثم سرنا وانا اطلب في صحبي والعير والبضاعة مقتلاً اصيبهم منه . وكنّا في سنة نزلت بالناس ففرُّوا لها فرارا

وتعاقبت احياؤهم في اضطراب الوالهة الثكلى . وكانت القافلةُ لا ينامون الا وعلى العير والمتاع رقيبٌ . فلما جاء الليل وقام رقيبُهم صبرْتُ عليه إلى ان خفق الليل ووقع بعينيْه رشاشٌ من النوم . ثم اخترتُ من الابل خيرَها وركبْتُ وسقته . فما زلت اكدّه سيْرًا حتى نجوت . وكنت على مسيرة يوم من احب مكامني إليَّ . وكنت أُريده . فما زلت الح على فرسي والجمل حتى كانت الهاجرة واحتّد عليَّ حُمّى الشمس فالسماء حديد .

فانا إلى كِنّة من جبلٍ اذ سمعتُ هاتفا وراءه يئنّ . فقلت : بقيّةُ حيٍّ قضى نحبه او رائدٌ حاد عن سبيلِه فهلك . ثم قلت : أرحَمُه فأُصيبُ فيه ثوابَ المُغيث . فمِلْتُ اليه . فلما اشرفْتُ اذا رجلٌ مستلقٍ والوهج ياكله اكل الحسناء للعفّة . فبادرْتُ اليه وأقبلتُ عليه أُقيمه . فكأنَّ الرجلَ لم يَرَني . فصحتُ به : هات يدك فقم . فلم يحرّك يدا ولا طرفت عينه . ثم اذا هو استوى فصاح كمَن به مِسٌّ : أو هكذا يَرْني الدهرُ

بالامل البِكْر ؟ سر يا هذا ودعني فقد وقفْتُ سبيلي . فاردت احتماله فاستلقى وهمس كالمُدْنف انقطعَتْ أنفاسُه : دعوني يا أَوْضَعَ من وهاد ، يا أَضْعفَ من عباد ، يا أَحقرَ من بعوض يا بني الانسان . وارتعد ارتعادَ العريان في يوم قرّ . فقلت : لا تُفعَل الحسنةُ بمن يردُّها . وقلت : يرحمه الله . ثم رجعت فقِلْتُ وانصرفـت .

* *

فما سرتُ ساعةً حتى لقيني نَفَر على رواحل مزِبدة ، وهم يُجهِدونها كأنَّ على اثرهم يومَ الدين . فاستوقفوني وقالوا : هل اصبت في طريقك منفردًا كالتائه ؟ فاخبرتهم بخبره . فقالوا : ذاك ابو هريرة . ما الوجه اليه ؟ وكنت سمعْتُ خبره وأنّه من سنة أو سنتين يطلب حملَ الناس على مذهب غريب ويقول : ليس من شأن الانسان الفناءُ والصبر . ويضرب الامثال

ويذكر العبر . فيهزأ به الناس ويتبعه الصبيان . ثم سمعت أنه تغيب عن أعين الناس . قلت : اني منطلق بكم اليه . وذهبنا سرعانا .

وسالت النفرَ ممّن هم ، وكانوا ستةً وسابعهم كلب كأنَّ لسانَه قطعة من نار . فقالوا : لقد أسْقط عنا ابو هريرة انسابَنا فنحن لا ننتسب . فتركت كلامهم ، وسرنا حتى وقفنا عليه وهو لا يزال مستلقيا كالخَلَق الطريح ، وقد فنيتْ في عينه الدنيا . قلت : ما نصنع بالرجل ؟ قالوا : نحتمله إلى ماء وظلٍّ قريب . وكان في كلامهم حيرة . وكنتُ عالمًا بجميع مياه المكان . فقلت : انا لذلك . واحتملتُ ابا هريرة ، وكان قد ذهب عن الحسّ ذهاباً ، فهو في خفة غريبة كأنه الروح . ثم اردفتُه وأشرتُ اليهم فتبعوني والكلب بين ايدينا كخفق السراب . وذهبت بهم حتى نزلنا بئرًا مبهة عاديّة عندها صخورٌ مبثوثةٌ كهام الاولين . وكنتُ جعلتُ عليها عريشا واتخذتها كِنًّا ومَكْمنا اذا

اصبت فيْئاً او سبيْتُ سبيّة . فجعلت ابا هريرة تحت العريش وقلت : صاحبكم تكاد ان تنضبَ رُوحه . فعجّلوا بمائه وطعامه فاني اراه لم يطعَمْ شيئا من ايام . والقيْتُ دلوي فاخرجتُ ماءً كالبرد . ثم سقيناه ففتح عينيه ، فاطعمناه وهو لا يقول شيئا . ثم اخذَتْه الحمّى فدامَتْ به اياما . وكان الكلب لا يبرح جانبه وهو في لهاثٍ كالمدِّ والجزْر . وبقينا كذلك اياماً ، وكانت تصيب ابا هريرة عند هاجرةِ كلّ يوم نوبةٌ شديدةٌ يهذي لها فيقول : فرعونُ ام الله ؟ او يقول : يا اوضع من وهاد ... ويعيد كل ما سمعته منه يوم وقعت عليه . فكنا نصبر له ويبكي اصحابه حتى كأنهم نسوة ويقولون : ماتَ سيّدُنا .

° °

وسالت النفر عن امره فقالوا :

كنّا من شدّة السَّنة في مثل لماثِ الكلب ، نطلب القوتَ بالسيوف ونكمن للقوافل والاحياء ويُكمَن لنا ونُغير ويُغار علينا . حتى ذهب منّا ومن اعدائنا . واطّلع علينا يوماً بعضُ احياء بني مرة . وكنا قد حملنا امرأةً منا وطفلين إلى الحفرة واكلْنا ابلَنا ولم تبق لنا الا الافراس . فنحن إلى عاجل الثُّبور . فاغَرْنا حتى طرحناهم كالعناصل . ووقعنا على الرحال والاحمال . فلم نُصبْ منها الا نَويات هزالا مُصَّت مرارًا . فكأننا قتلنا مَيْتة .

وبقينا كبغل الطّحان نُحوِّم ولا ندري المصير . فإذا ابو هريرة طلع علينا بكلبه وعصاه . فاقبل على الجُثثِ فجعل يحثو عليها الترابَ ويحثو كلبُه حتى وَارَياها جميعاً . ثم وقف فبكى وصلىّ لها وسجد كلبُه . ونحن ننظر اليهما وليس فينا من يكلمه ولا من يقدر على الكلام . ثم اقبل علينا وقال : اتعجبكم جُثثُ القتلى تفوح ؟ أيُغنِيكم الموت ؟ ام تفعلون ما لا تعلمون ؟ ثم

أومَأ فقمنا اليه . فسار حتى وقف بنا على احد قتلانا وازاح التراب فإذا وجهُ حسناء كأنها النور . وقال : وقد جعلتُمُوها ظلاما . ثم حثا عليها التراب وقام وبكي .

* *

وحدَّثنا وحدّث الحيَّ حتى طابتْ لنا الحياة . وقام يهدينا حتى نزل بنا جنات ووديانا طاشت عنها اعينُ الناس فهي على وجه الارض وكأنها من السماء . ومكثنا عليها اياما نصيب من الفاكهة والريحان ، عنبا وتفاحا وتينا ورمانا وَعَبْهَرًا ونسرينا . ثم جاءنا فقال : أطِبتُم نفوساً لغير القتال ؟ قلنا : نعم . وقلنا : انت سيدنا . فقام بنا إلى الاحياء نعترضها فنستوقفها فيقوم فيَختَطِب فيقول : ان الجهاد قائمُ السيفِ بينكم يَزْفَر كالصخرة الظمآى ويُوري الفِتنَ الصماء . فهي عَليكم كقِطَع الليل او كعَنيد السُّبَل سوداء . وانتم مسلمون راضون ؟ والله انها لمن المعجزات . ان الذئاب

تلبّست بدمائكم فاعارَتْكم وحشةً وظمأً وجُوعاً ، وانبتَتْ بافواهكم انياباً حديدًا . فتآكلتُم وتقاتلتُمْ . فلا القتل أَرْوَى ولا النهبُ أشبَع . والله انها لمن المعجزات . تُفْسِدون وتهدمون وتجعلون ما خلق الله دمارا ، وانتم لا تعلمون ما تطلبون . الا إنَّكُمْ فؤوسُ الخراب . أفلا تستَحُون وترعَوُون ؟

او يقول شبيهاً به ثم يسكت . فيصيح الناس : كلامك لا يغني من جوع . فيشير الينا فنُمْطِر عليهم مما احتَمَلْنا من الفواكه والتمر والبُرّ والرند والريحان . فيُقْبِلون عليه رُكّعا وسجودا . فيعرض ويقول : كذا انتم شرٌّ ووهن . والله انها لمن المعجزات.ثم نقوم بهم فنُنْزِلُهم الجنانَ والوديان .

• •

ثم عادت الفِتَن ونشأ الحسد بين اهل الجنّات . إلى ان أمسى أبو هريرة فلم يصبح . ولم يفتقدْهُ

من الناس غيرُنا . وطلبناه اياماً فلم نقف عليه . ومضت شهور . ثمّ جاءنا الكلب فقفوناه . وها نحن بين يديه وهو كما ترى .

ثم يعود اليهم البكـاء .

• •

قال كهلان : واقمنا على ذلك اياما . حتى خفّ عنه الداء . فقال لاصحابه : دعوني وعودوا إلى الجنات والوديان ؛ فقد تفتقدكم أمٌّ أو عدوٌّ. فانطلَقوا انطلاق الجسد برحَتْه الرُّوح . وبقيتُ وابا هريرة وكلبَه . ثم اذا هو دعاه فقال ومسح على راسه : وانت ايضا يا حبيبي . لو انطلقْتَ لكان خيرًا . فانصرف الكلب وهو يعوي . فلم نزل نسمعه عند العتمة وعند الفجر . فهو إلى اليوم يعوي ثلاثا عند الغروب وثلاثا عند الفجر، وتسمعه القوافلُ والاحياءُ ولا يراه احدٌ في ليلٍ ولا نهار. وكان ابو هريرة يقول : هو ايضا يؤلمه القضاءُ .

فيبكي . انه يعوي شأنه في الحياة حصيرًا بما قُدِّر له . ذاك انين المريض او ثورة المُتمرِّد . فاقول : وما تعلم الحيواناتُ من حظِّها والقضاء ؟ فيقول : لعلها تشعر منه شعورا فتوجَع توجُّعاً لا ندركهما ولا نفقد منهما شيئا .

حديث العدد

حدث كهلان قال :

لما ذهب اصحاب أبي هريرة والكلبُ خلّوْنا .
وكان لا يزال على بقية من مرضه تباطأت به .
وكنت على رأسه لا ابرحه. فكان يحدثني حديث الميت يُبعَثُ كرها ويتوق إلى موته . فسألته يوما في شأنه بين الناس . فقال : عشتُ في الناس ثلاثين . فلم أرَ والله في واحدة منها الا ذئباً ينهش ذئبا أو صاديا يشرب فيشتدُّ صداه . ولا خير في الوحوش ولا خير في النفوس الصوادي ... والارضُ في ذلك تنشيءُ وتعيد . ثمّ انطلق به الفكر وكان كلما انتشر في خواطره سجا

كالبحر وشاع كالدهر وامتدّ . فكرهت ان اسأله ولزمت صمتي حتى عاد اليه الكلام فقال : اتحب ان تسمع خبر هؤلاء ؟ قلت : نعم . وخبرَ من عرفتَ جميعا .

قــال :

منهم قوم هؤلاء الستّة . وليسوا من شأني . ادخلْتُهم وكثيرًا غيرهم جناتٍ ووديانا فسجدوا لي . ثم نظرتُ فإذا النعمة ترشح بالشر والكُنُود ، واذا هذا يفترش عرض ذاك وذاك مائل النظر إلى امرأة اخيهِ وآخر يجيل يده كلَّ ليلة في متاع جاره وذويه . ولم يلبثوا ان نسُوني . ألقى الرجلَ منهم فيقول : من أنت ؟ فأقول : ابو هريرة. فيقول : ومَنْ أبو هريرة ؟ أقول : انا . يقول : ومن أنت؟ فهم في نميمةٍ وخديعةٍ وسرقاتٍ وغدرٍ وجحودٍ للنعمة وقلةِ وفاء . إنما كان لي شأنٌ مع غيرهم .

ثم قــال :

انه يا كهلان اذا كره المرءُ الحصْرَ والقصْرَ طلب كثرةَ

اليَمِّ واشتاق العدد . خرجْتُ اريدهمَ على البناء وان يتعاونوا ويطلبوا الشدّةَ والبأس . فقلت : رحيلكم فرارُ الجبان . الا تستحون ان تكونوا كالرياح . ثم نظرت فاذا هم في سنة شديدة متخاذلون مُتآكِلون ، وعلى ذلك يُصلُّون ويدْعون الاستسقاء وربَّهم ، ويُسبّحون اسماءه الحسنى . فقلت : ابنُ آدم يقتضي الرحمة . ودعوتهم إلى جناتٍ ووديان وأعنابٍ مهدَّلةٍ من لؤلؤ ومرجان وتين وتفاح ورمان وماء مُسْتَراحٍ وريحان. وقلت : كلوا واشربوا . فلما شبعوا قمت فقلت : اطابَتْ لكم ؟ فقال قائلهم : يا أبا هريرة جُعْنا . وقالوا : دعانا داعي الرحيل . قلت : كـأنهم مثلي ، لكن هيهات . ثم خرجت بهم إلى صحراء بيداء سماؤها خلاء . فتاهوا بها وصرفوا بانيابهم واستحال الطعام فتآكلوا حتى ذهب أكثرُهم وبقي نَفَرٌ منهم صاحوا : يا أبا هريرة طعامُنا زقّوم . ولم يعمد احدهم لاخيه فيأكُله أوكرهوه وقالوا : غيرُكَ لا يغنيك من جوع . ثم عمدوا إلى

انفسهم فنهشوا ايديهم وارجلهم نهشاً حتى ذهبت
أفواههم وانيابهم باجسادهم جميعا كالنار تأكل النار .
ثم قامت هامهم فهي إلى اليوم في التيه هناك يُسْمَع
لها كحفيف الحيَّة وكنقيق الضفادع ليلا وتضوُّرِ الذئاب
نهارا . قلت وارتعدتُ : لا يجدون في فنائهم ما لم
يجدوا في الحياة .

وقلت : انه لا يشبَع مَنْ روحُه الجُـوع .

* *

ثم قلت : لعلي أجد في بعض الناس مكتفيا
لا يزدادُ جُوعُه للطعام وصداه للشراب . فعدت
فاقبلْتُ على احياء اخرى ذليلةٍ مستكينةٍ عليها أميرٌ عُرُدٌ
مستبدٌ . فدعوتهم إلى نخلٍ معاجيلَ كارعاتٍ وانهار
جارياتٍ وافنان وظلال واطلاقِ حال وخيراتٍ جزال .
فلما امرعوا قمت فقلت : اطابَتْ لكم ؟ فصاحوا
كلهم : قد امرعنا وطاب المُقَام . وتوسدوا الظلال فناموا

فقلت : كذا انتم والله ، لا تعرفون الا الاسلام . وانكرْتُه
فصحتُ : ايها الملأ اسمعوا . اني وجدتكم كالكلاب
على جثة عفنة ، تأكلونها نظرًا وتتلمَّضون لها شفاهاً
ولا يقربها أحدكم الا ذهبت به انياب سيِّده أو أخيه .
وكنتم في شدَّةٍ فاخرجْتُكم منها وجئتُ بكم هاته
الجنات والوديان . فرأيتكم عليها كمثل شيخٍ ذي
وقار على يهودية عجوز كانها الاثم اريد فلم يُدْرَك .
تحدِّثُه وتسقيه وفي عينيها رحمةُ الشيطان لآدم .
تكتفون بالصَّدَقَات وتنامون . والنعمة لا تدوم بالعطاء .
وما اهلٌ لنعمةٍ مَنْ كان رخا . أفأنتم راضون .

هاته الارض نحن خلَقْناها . وهاته السماء نحن
نَصبنا عمادَها فأقمْناها . فهل ملكتُمْ من خيراتها
شيئا؟ ـ لقد قالوا عنكم : ليس لهم الا جزْلة من
رغيف ولعْبة تلهيهم كالصبيان . وحَجبوا الشمسَ وفيها
لكم نورٌ به تهتدون ، وامسكوا العيونَ وفيها لكم حياةٌ ،
وذبحوا عنكم البقرةَ الصفراء . وقالوا : ما يولد منكم

اليوم ، غداً نأكلُ جهدَه ونمتصُّ دمَه . وما حرثتم
اليوم ، إلى أفواهنا من الساعة سنابلهُ . وقالوا :
نساؤكم لنا إماء وأرواحكم مرْعَى أيُّها الضعفاء . ثم
القوا لكم بعظام مقشّرات هزال . فجثوتم على
الرُّكَب تُصلُّون . وقلتم : طاعةً وحمداً يا أولي الامر
فينا . فحشروكم فالقوكم في الاصفاد . أفأنتم
راضون ؟ أما آن ان ترتفعوا إلى الشدَّة والبأس ؟ ألا
تُوقدونها حمراء ليس يردُّها جان ولا إنس ؟

ولم ازل بهم حتى رأينا الجبال من حضرموت والسَّراة
إلى طور سنا سارَتْ وعلى رؤوسها السُّحبُ وسبيلُها فلقُ
البرق ، فاستدارتْ في السماء دوِّيا وانشقَّتْ وانفطرَتْ
فتطايرتْ قِطعاً كالرَّعْد كأنَّها تريد السماء أنْ تجعلَها
اشلاءً . ورُجَّتْ بنا الدنيا فإذا نحن كتائبُ وقد
أزفَتْ بنا السيوفُ زفَّا . وفِضْنا امواجاً مُرعِدةً على
الانجاد والاغوار . وانتشرنا كالليل فوقعْنا على الشام
وأثرْنا بتهامةَ نَقْعاً واصبْنا اليَمَن وامتددْنا إلى

العَرُوض وعِثْنا حتى تركْناها دماءً . وكدْنا ان نطمس
كلَّ حي فلا نبقي ولا نذر .

* *

ووجدت في الفعل كمثل سكرة الخَمْر وحسبْتُه
من العدد وخِصب الكثرة .

* *

ثم اغرنا يوما فقلتُ : أغيروا ولا اقودكم . فأغاروا
فانهزموا . فهم كمثل قوم تقول : ابتَنُوا . فيقولون :
نُحبُّ ان تنفخَ في البناء وان تقولَ ما نبني . فتقول :
كسِّروا الجبالَ وأقيموا القصر والصرح . فلا يقدرون
ويقولون : إنَّا وجدنا انفسنا عُمْياً كساعدِ المقطوعةَ
يدُه . افلا تجعَلُ يدَكَ مع ايدينا ؟ فتجعَلُ فيبْنون
شيئاً ثم يُعْيُون . فهم كأعجاز نخلٍ هاوية . فلمَّا
خاروا هممْتُ ان افعل بهم ما فعل أبو رغال بقومه .

ثم قلت : إلى أَيْنَ ايتُها الشِدَّةِ الكاذبة ؟ وانقضى نَحْبُ عزمي فصحْتُ : دعوني ايتُها الاجسادُ ليس لها روحٌ غيرُ ما سَلَبْنَ من روحي . وبقيتُ وحدي على جَهْدي وَتَوْقي .

هذه يا كهلان قصةُ الطالب الكثرة . جئتُهم فسألتهم روحاً فإذا هم افرغ من نفخة إسْرافيل وإذا انا في وحشَةَ القطرة من النَّدى تُغَنّي على الغصن صباحًا. وها انا علىَ صَدَاي . اسمعُ حفيفَ الحيَّة ونقيقَ الضفادع ليلاً وتضوُّرُ الذئاب نهارا .

قلت : وعواء الكلب يا أبا هريرة ايضا . ليلا ونهـــارًا .

فقال : نعم وعواء الكلب ايضا ليلاً ونهارًا ، حتى بعد موته وعظامُه رميم ، وفاءٌ لا يعرفه الإنسان .

ثم قام ابو هريرة فأخذ عصاه وقال : ارحمْهُمُ يا كهلان ولا تُؤمِنْ بهم . السلام عليك يا حبيبي .

وانطلق فكأنّي به ضمّةُ الابد .

حديث الجماعة والوحشة

حدث هشام بن حارثة عن ابي عبيدة قال :

افتقدْنا أبا هريرة في بعض دهره امدًا طويلا وانقطعت عنا اخباره ، حتى ساء ظنّنا بمصيره ، وقلنا : إنْ كانت ألمّتْ به وفاتُه فيرحمه الله . وكنا نتذاكره وترق قلوبنا ونجده في قرارة أنفسنا أُنسًا حاضرًا وإن ضاع شخصه . وكان كثيرًا ما يقول لنا في خير ساعات عشرتنا وحال انبساطه للدنيا : انما بهذا الأُنس وهذه الألفة والمحبة صوّر اللهُ الإنْسَ إنسًا ومتعة .

ومرّت احقاب . ثمّ اذا هو عاد من غيبتِه الطويلة

وتيهه في احياء العرب ، فطلع علينا أشعثَ مغبارًا قاسيَ الوجه أليمًا ، حتى كدنا لا نعرفه . فعطفنا عليه نسأله في أمره وخافية ما ظهر لنا من بُؤسه وبأسه . فيقول احدنا : يا ابا هريرة من اين عليك كلُّ هذا ؟ لقد امتلأت قلوبنا شفقةً عليك ورقة . فيصيح فينا ويلوي : اليكم عنّي يا ابناء النُكر يا بني الانسان ، ان شفقتكم لعنة . والله لقد عاشرت واستأنست أشباهكم كثيرًا . وحسبت أن في العشرة سعةَ النفس واليمْنَ والنعمة ، فما كان منه الا خلاءُ الخيبة ووحشة الوحدة ، وارتدّتْ اليّ نفسي ضيّقةً حسيرة ، وضل عنّي كياني . وإنَّ ذلك لهو القنوط الاشقى : أنْ تُغْرِيَ عِشرةُ الجماعة بظاهر البركة والطهر والكثرة ، فتنكشف شرًّا ونجاسة وغُمّاً وشقاوةَ وحدة . كإغراء الآل في قيعة .

وكان يقول وهو يختلج كانما اخذته الغصّة .

قال أبو عبيدة : ولم يزل ابو هريرة من ذلك العهد

كالنافر من الناس ، لم نَرَ له قط بعدها عطفة . فكأنه مات في باطنه بعضُ ما يكون به الانسان انسانا او عميَتْ بصيرة . وكان ذلك اول انحداره الى نحبه .

حدیث العمی

، كرّتين ينقلب اليك البصر خاسئا وهو حسير ،
(قـرآن)

حدث ابو اسحاق عمرو بن زيادة السعدي قال :

خرج ابوهريرة مُشرِّقاً. فضرب في الارض زمنا . ثمَّ ردَّتْه علينا بعضُ قوافل الغرب كثيرَالغبارفاني العصا . فسألْناه في رحلته فابتسم . وقال : لو كنتم عشتُم في مستقبل الدهر لقرأتم ما سيكتبه ابن بطوطة من خرافات الصبيان . وكان يقول : لقد ماتَتْ الجهاتُ الستُّ . او يقول : من ضاعتْ قبلتُه فليسِرْ ولا يطلُبْ شرقاً ولا غرباً .

فكأنَّما ضاقتْ عنه الدنيا وفاض عنها او وقع عليها فـأفْناها .

حدیثے الحمل

حدث حرب بن سليمان قال :

جاءت على ابي هريرة ايامٌ كان يُسْأَلُ : يا ابا هريرة حدِّثْ . فلا يكون منه الا ان يقول فكأنَّ لكلامه ثِقلا يُعيي : لقد ضاع عنّي وعجز الكلامُ. فهو يومئذ أملأُ فأعظمُ وابدعُ ما يُرى واجلُّ .

ولم يزل كذلك حتى خرجَ ففقدناه شهورًا .

حديث الغيبة تطلبُ فلا تدركه

« فقد عرفت ان سعادة النفس وكمالها ان »
« تنقش بحقائق الامور الآلهية وتتحد بها »
« حتى كأنها هي ... »

(الغزالي)

حدث مَكين بن قيْمة السعدي قال : حدثني هشام بن أبي صفرة الهذلي قال :

كانت ظُلّمَةُ الهذلية من راهبات دَيْر العذارى. تنصَّر أبوها في بعض عمره فنشأتْ على النصرانية. وكانت مع حرّجمالها نَفورًا شَرودًا، تأْبى الأُنوثةُ وتتصنَّع طبائع الرجال. فلما بلغَتْ من السن ما يطغى فيه الدمُ ويفيضُ الماء : تمرَّدَتْ فترهبَتْ ودخلت دَيْر العذارى . فذهب لها به ثلاث سنوات . فهي به اذ نزل بهم أبو هريرة . فأقام فيهم زمنا . ثم انصرفا معا وقد ارتدَّتْ وفجرت فأمعنتْ في ذلك .



ولم يكن فجور كفجورها نيةً ومعنى . وكانت تقول : فجوري من الطاعة والاذعان . آمنت من يوم آمنت بالجسد وكفرت بالرّوح ثم أسنَّتْ وفنِيتْ . فاشترتْ تيْسا ، وكانت تقول : ارتاح لنبيبه .

• •

قال : قال : حدثتني ظلمة قالت :

أول عهدي بابي هريرة يومَ طرقَ علينا بالديْر . وكان قليلا من يطرق علينا لمنعةِ الجبل وشدّة الديْر وعُسْره وانفصالهِ عن الارض . قال : تريد ديْر العذارى . وهو الذي على الجبل فوق أثايَةِ العَرْج يراه الحاجُّ في طريقهم ولا يبْلغُه الا النُّسور . ولا يعلم أحد كيف يرتقي اليه رهبانُه ولا كيف ارتقى اليه أبو هريرة ولا ظُلْمة . قالت : وكنت صاحبةَ المِفْتاح . ففتحْتُ له وسألتُه ما حاجته . قال : حاجة الفارِّ الملتجيء . فحسبته متزهـدًا مترهبًا . فقال وأشار إلى ظلّه : هروبي

من هذا . فرأيته يُلوّح إلى ذنوب اعتلقَتْ به . فقلت : ان كنت تطلب مَحْوَها فادخلْ . فدخل وتقدمته الى رأس الدير.

ونحن بدهليز الديْر اذ قال ، وقد رأى مِسْبَحتي وتسبيحي : في كم تسبيحة تعمى العين ؟ وكنت نسيت النورَ وعينيَّ لشدَّة ما كنتُ اصرفهما إلى الغيب . فلما سمعْتُ كلامه ثنيْتُ بصري اليه . فاذا هو من أوضح وأضوى وأحسن مَنْ رأيتُ عينًا ، واذا عينه أشدُّ ما رأيت شوقًا إلى ما لا تراه غيرُها من العيون ؛ فكأنها تنشئ مرئيَّها إنشاءً وكأنَّ روحَه البصرُ . وكانت مِشيتُه لا تكاد تستقيم كأنَّ به خمرا أو نَصَباً . فقلت : ما بك ؟ قال : سؤالٌ أطلب جوابَه . أريد أن اعرف أيهما أصدق وجودًا الله أم الشيطان . فقلت واستغفرت : استغفرْ ربَّك يا هذا وطهّر نفسك من الدنيا . فصاح : لا تستغفري ولسْتُ بمستغفر . أريد أن اعرفَ آنا خالقُ اللهِ أم اللهُ خالقي . وأردتُ أن أمسكَه عن كفره فأبى .

ولم يكن فجور كفجورها نيةً ومعنى . وكانت تقول : فجوري من الطاعة والاذعان . آمنت من يوم آمنت بالجسد وكفرت بالرّوح ثم أسنَّتْ وفنِيتْ . فاشترتْ تيْسا ، وكانت تقول : ارتاح لنبيبه .

• •

قال : قال : حدثتني ظلمة قالت :

أول عهدي بابي هريرة يومَ طرقَ علينا بالديْر . وكان قليلا من يطرق علينا لمنعةِ الجبل وشدّة الديْر وعُسْره وانفصالِه عن الارض . قال : تريد ديْر العذارى . وهو الذي على الجبل فوق أثاثةِ العَرْج يراه الحاجُّ في طريقهم ولا يبْلغُه الا النُّسور . ولا يعلم أحد كيف يرتقي اليه رهبانُه ولا كيف ارتقى اليه أبو هريرة ولا ظُلْمة . قالت : وكنت صاحبةَ المِفْتاح . ففتحْتُ له وسألْته ما حاجته . قال : حاجة الفارِّ الملتجيء . فحسبته متزهِّدًا مترهبا . فقال وأشار إلى ظلّه : هروبي

من هذا . فرأيته يُلوِّح إلى ذنوب اعتلقَتْ به . فقلت : ان كنت تطلب مَحْوَها فادخلْ . فدخل وتقدمته الى رأس الدير.

ونحن بدهليز الديْر اذ قال ، وقد رأى مِسْبَحتي وتسبيحي : في كم تسبيحة تعمى العين ؟ وكنت نسيت النورَ وعينيَّ لشدَّة ما كنتُ اصرفهما إلى الغيب . فلما سمعْتُ كلامه ثنيْتُ بصري اليه . فاذا هو من أوضح وأضوى وأحسن مَنْ رأيتُ عينًا ، واذا عينه أشدُّ ما رأيت شوقًا إلى ما لا تراه غيرُها من العيون ، فكأنها تنشئ مرئيّها إنشاءً وكأنَّ روحَه البصرُ . وكانت مِشيتُه لا تكاد تستقيم كأنَّ به خمرا أو نَصَباً . فقلت : ما بك ؟ قال : سؤالٌ أطلب جوابَه . أريد أن اعرف أيهما أصدق وجودًا الله أم الشيطان . فقلت واستغفرت : استغفرْ ربَّك يا هذا وطهّر نفسك من الدنيا . فصاح : لا تستغفري ولستُ بمستغفر . أريد أن اعرف آنا خالقُ اللهِ أم اللهُ خالقي . وأردتُ أن أمسكه عن كفره فأبى .

وسِرْنا على شبيه بذلك حتى وقفتُ به عند رأس الديْر . فأخبرته بما كان من أمره . فاقبل عليه يسأله . فكان أبو هريرة ينظر الينا نظرة غريبةً ولا يجيب . ثم قال : الرهبانُ أينْسَون ويموتون عن أنفسهم ؟ قال الرأس : نعم . ولقد نسي المسيحُ من قبلنا . ان كنت تطلب لدائك دواءً فانْتَ أخونا .

ثم أحْمَلَنيه الرأس أُعلِّمُه وارَوِّضه . فانصرفتُ به يرمي عن جَسده ثيابَ أهل الدنيا . فوجدت لثيابه ريحاً كريح الدنيا هزّت نفسي . وكأنما ادركها أبو هريرة مني فقال : ألا تُذكّرك إبلَ الحيّ تكون ضَباعاً ؟ ممَّن أنت ؟ هذا أنفُك يرْمَع . وكان كذلك . فكرهتُ ان اجيبه . ثم لبس الصوفَ ومكث فينا ستّةَ أشهرٍ بكدّ نفسَه في رهبنتنا . فلم ينزل من الدير الآبي .

قالت ظُلمةُ :

وكنت أختلي به كلَّ ليلة في محراب أعلِّمه الاخلاصَ واعلّمه الادعية . فانا به أوَّلَ ليلةٍ اذ أقبل عليَّ وأخذ بيدي وقال : هل بلَغْتِ من الصلاح ما تحملين معه فتلدين ولا فحل ؟ فنفضْتُ يده واقشعرَّ دمي . قال : ان لم يكنْ فالصلوات أقلُّ من الخمر جدوى . كيف تتخلَّصون من الاجساد والارواح ؟ قلت : نمزِّقُها تمزيقا حتى ننسى الالم . وأما الروح ففي الله والمسيح فناؤُها . وكان من طريقتهم تعذيب الجسد حتى يفنى . ثم قمتُ فأتيته بسوط . فدفعه وقال : بيدي لا بهذا . وكنت أقول : دم المسيح ولحمه يمحوان ذنوب المذنبين . فيقول : الا سبيل إلى تعليمي ما يُنْسِي ؟ الا سبيل إلى غير المعقول ؟ علمني الحمل والولادة وسرّ توارث الارواح أو غنّيني وأريحيني. اليس فيكم من يحذق صنْعَ الاصوات تُحْضِر الآلهةَ وتَكسِّر الزمانَ وتُشيعُ المحدود . فاقول : اللهم ارحمْه .

ثم علمتُه دعاء ليلته ودخلتُ غرفتي وبكيت إلى فجري.

ولما اصبحْنا جئت الصلاة فاذا أبو هريرة قد شق لحْمَه بظفره ، فهي على جسده كالخيوط الحمراء ، وصوفُه مضرَّجةٍ كجلد السليخة . ثم اختفى عنا وخلا بمحرابه . فبقي به شهرين أو أكثر لا ينفذ اليه بصيص من النور . وكنت أذهب اليه بطعامه فلا يفتح لي باب محرابه ويقول : ضعيه على الباب . فاضعُه وانصرف وأعود اليه بعد ذلك فاذا هو يصوم اليومين والثلاثة لا يطعم ولا يشرب حتى خشِيتُ عليه . وصِرْتُ بعده كالخاويةِ القَفْر وبكَيْتُ كثيرا . ثم انكرتُ ذلك وتمرَّدتُ فخلوتُ أياما بمحرابي ، وبكيت شوقا ودعوت خشيةً ولعنت الشيطان وأبا هريرة ، وقلت : لا يغلبني . ثم لم يلبث ان وهن عزمي وكرهْتُ لياليَّ يذهب بِسكونها أبو هريرة . فخرجت من معزلي . فكنت أجيء باب محرابه في جوف الليل واقنع بنَفَسِهِ أسمعه كنفَسِ الريح الحيرى أو بنَبرات بكائه

اسمعها كالدلو. فابكي ويخفق قلبي ثم لا يطيب منامي.

ثم خرج الينا فجانبْته . وكان كالذاهب البال ، لا يكلم أحدًا ولا يسأل عن أحد ، ويُكثِر من الجلوس في مقبرة الدير . ولم أصبر عنه فأتيْته ، فقال : هل نسيتِني ؟قلت : لم استطع . قال : وتطمعين بالموت . قلت : وهل أنسَتْك العزلةُ ؟ فابتسم وقال فإذا ابتسامتُه في وجهه الناحل الشاحب كالفجر الطاهر : لا أدري . لعلي نسيتُ الألمَ . أما اللذة فلا أدري . فكأنه أثبت فيَّ سهماً . فالقيت بنفْسي وكدت أقع على وجهي ؛ لولا أنه أقامني واحتملني إلى محرابي ، وقد غُلِبْتُ غلبةً لم يكن لي بعدها شدةٌ ولا عزم . فلما افقت اذا هو على رأسي يقول : كذا المرأة لا تكون الا واهنًا مقطاعَ الجَهْد . فاذا همّت أو اشتدتْ بعض يوم اذا هي رماد . ثم بقينا أياما بمحرابي ، والديْرُ يحسبنا نتعبد ونبتهل وانما كُنّا في الشيطان . وكان أبو هريرة يقول : الآن علمْتُ وعلمْتِ ان اللذةَ لا تُغْلَب .

فسألته : أوكانَتْ فيّ منذ الصغر ؟ قال : نعم وفيّ .
قلت : وقد كرهتُها لما فيها من تواضُعٍ إلى أمثالكَ من الخلق. وكنتُ من أيام تيقُّظي إلى محاسني ونعومةِ لحمي ادفع الجودَ بها على الرجال والوقوعَ تحتهم والاستكانة اليهم . فكنتُ اتناساها وانفيها حتى جاء أبو هريرة وقال : انه لا يتناسى الجسدَ انسانٌ الا أكلتْه الخيالات . وسألني : هل وجدتِ في تعبُّدِك امتلاءً ؟ اذ ذاك آمنتُ بانسانيتي ووجدت من حياتي مَلأً لم أجده قبلَه واتسعْتُ حتى علوْتُ حياتي ، وكنت خاوية ذليلةً مستكينةً مستضْعَفَة .

وكانت لنا أيــام .

* *

ثم أهْمَلني فكان لا يأتيني الا كالمُرْغَم الكاره .

فبقيتُ أبكي ويطول بكائي وكان قبلُ لربي - إلى ان اعتزلَنا جميعاً عزلةً ثانية ، وبقي أياما لا يُسْمَع ولا يُرَى ولا يَطعم ولا يَشرب . فلما اعتزل دعاني رأسُ الدير فقال : احذري يا ظلمة ان يُهْبِطكِ الارض . فزادني ذلك وحشةً على وحشتي وشوقاً على شوقي . ولكني كتمت ضلالي وإثمي وأردت أن أبلُو نفسي ودعوتُ صلاتي ان تُعاوِدني وربي ان يبرُز لي . فبقيت كذلك أياما ابتهل وأصليّ مُتَبتِّلةً نازعةً عن غوايتي مُنيبَةً إلى الله . فلم يُجْدِني ذلك أكثرَ ممّا يُجدي الطاويَ مضغُ الحصى . وبَقيتُ خاويةً فارغةً وقد هوى ربّي ، أُصليّ فاجد صلاتي كالشَّهْدة الهِفّ ، وأدعو فإذا جوارحي ترتعد وتختلج ، كأنَّ ابا هريرة قد لبسني وخلفَ اللهَ في قلبي .

ثم خرج من معزله . وَخَرَجْتُ فجئته فإذا هو فاتر الجسم شاحبُ الوجه منهوك ساهم مدنف . فجزعت وقلت : وما كان جزاء هذا ؟ فاخذني إلى محرابي وقال

اني أقص عليك يا ظلمة الغَيْبةَ تُطاب فلا تُدرَك .
وكانت نفسه تعوي كالذئب ؛ ولكنَّ كلامه كالريحان
تذروه الريحُ فيموج ويفوح . وقال : انه يا ظلمة اذا
أقْوَتِ السماواتُ انهالَتْ على الظهر . قلت : حدثني
عن الإيمان . فاطرق ساعة كالمصيخ إلى ليلةٍ من ليالي
الصيف هادئةٍ قمراء خالية . ثم قال : نعم ...

° °

كنت يا ظلمة أرى المؤمن مُرْتاحاً كاطمئنان الجمال
تطوي المراحلَ طيًّا ولا نصب يبدو ولا شكوى ولا
عصيان . فأشتهي أن أكون مثله وان اعضد هذه
الحيْرَةَ من قلبي كما تُعضَد النخلُ العقيم . وكنت ممَّن
ذهب ايمانه فجاءت حيرتُه . وليس سواها خليفةً
لله في قلوب الناس . فجئتُ هذا الديْر وقلت : لعلّيَ
أروض النفسَ على الايمان .

وقد انتهى اليوم جهادي وعلمت ان الالهة

لا تُقَـام اذا هـوَتْ .

° °

قالت ظلمة : فقلت : وهؤلاء يا أبا هريرة ؟ أعني
الرهبان . قال : انهم خليطٌ كَسُوَيْقاء المرَق .

فيهم الهوائيُّون عَبَدةُ الخيالات أصحاب الاحلام .
الذين يريدون الارض ان ترتفع إلى السماء والحقيقةَ
إلى الوهم والذاتَ إلى الظل . وقد حدثني بعضهم يوما
فقال : أنْظرُ إلى السماء فأراها نورا والارضِ فاراها ماء
ونفسي فاراها شعاعا . ويقول النجوم اخوتي وزهر
الارض وسادي والشمس طعامي . هل أكلْتَ من
الشمس ؟ انا طائرٌ أو صخرٌ أو سحاب في السماء .
فقلت له : فإذا تيقَّظْتَ ؟ قال : لا أدري في أي بلد
وقعت وليس من همّي . وطلبت مثل احلامه ، فإذا
صاحب الاحلام اذا ذهبَتْ به قَتَلَ الدنيا وانقطع

إلى الفوق فليس في الكون غيره وإنْ هو الا خيال .
وليس أكره من الحي! عندي .

وفيهم الارضيُّ يلعن ربَّه أنْ ليس مَن طينٍ مثله ؛ ويطلب المغالطة كالذئب يتصنَّع جرَّة الغنم . فكأنه يقول : يا رب نزعْتُ طيني فانزَعْ روحانيتك . ولستُ ممن يحب الطين ان يرتد اليه كل شيء .

وفيهم يا ظلمة الاعرجُ الضعيف النفس ؛ يحبُّ الكاملَ السالم ويُكْبِره فيعبده ؛ ويكره ضعف نفسه فيريد ربَّه أنْ يُقْرِضه القوة .

وفيهم صاحب الشوق يحن إلى ما يوسوس في صدره من ذكرى القِدَم .

وفيهم يا ظلمة الكَفَرة مثلك ايمانهم خدعة . وقد جهدوا ان يعلّموني ايمانهم . ثمّ نظرت اليهم يركعون ويسجدون لله ويكثرون من ذكره ويجعلونه في السماء

يرفعون اليها الابصار ، فلا يذهب ذلك بشيء من كفرهم . فان أكثرَهم يلحون في ذكر الله الجاحَ الشاك أو المنكر. وبعضاً منهم يلحون في ذلك اكثارَ من ذكر الله ولمَّا يعرفْه فلمَّا خاف ان يجده سكن اللسان .
انهم يَخْلُقون ما يعبدون . ويطلبون الغَيْبَة . ولكنهم لم ينجـوا من انفسهم . بل تفرد بهم شيطان الروح وماتوا ميتة غريبة . احياءٌ في بواطنهم نيامٌ عن الدنيا ؛ قد اتسعت نفوسهم فغطَّتْ عليها . اولائك قوم تاهتْ قلوبهم واعينهم وغرَّهُم ما غرَّني من أمر البراهمة بالهند ؛ يظل الرجل منهم عامَّةَ دهره يتعبَّدُ حَرًّا أو قرًّا ولا يُغير من ثيابه ولا يحرّك من طرفه ؛ كانما ذهبت حياته وذهب جسده ؛ فكأنه الفناء أو الاطمئنان الكامل ؛ وليس كذلك . كذا رهبان الدير سُكونٌ ولا اطمئنان .

وقد ارتضْتُ رياضتهم وتلوت الادعية وصليت الصلوات ، وامسكت نفسي أنْ تكابَرَ الله . فلما انتهيت فقدت نفسي . ففرحْتُ وقلت : فَنِيْتُ في

رَبّي. وقلت هو الله . ثم طلبتها فاذا هي حاضرة لم تغِبْ ، وانما انقلب الشكل ؛ واذا روحي لغوٌ من الاناجيل وعقلي نسيجٌ من الحروف وقلبي من الظلمات وربّي وهمٌ من ذلك وليد ؛ واذا على لساني لعنة ذي المَسْغَبَة يُطعَم الزقّوم .

ونظرت إليهم على اختلاف مذاهبهم ، فرأيتهم يخدعون انفسهم أو لا يعلمون ما يفعلون . أو يكونون ادخل من الملائكة في الروح يطلبون محلَّ الالهة ويقولون : لقد تألّه المسيح من قبلنا ، ـ وهم على ذلك لا يتخلّصون من الحاجة تنزلهم إلى الغائط ، ولا من الطعام يُحرِك فكوكَهم كالابل تجترّ ، ولا من الشهوة يركب بعضُهم بعضا ، فقلت : سحقا لاَ، كالقردة أو كالحمير . وقلت : سحقاً لرهبنة لا تكون الا تألّهاً مستحيلا أو غرورًا مؤلما .

ثم خرجْتُ عنهم وعنها .

قالت ظلمة : فقلت : وقد أخرجتني . فإذا للجسد مسٌّ الجديد المُعاد الخلق . فلم يقل شيئًا وضمني اليه .

* *

ثم هبطنا الارض .

جدیئے الہولے

« اذا كان الموت راصداً فالطمأنينة حمق »
(ابن عبد ربه)

« ...... وامصابي من غد ان أقبلا »
« وفاتي هامةً تعوي بقاع »
(عمر الخيّام)

حدث حرب بن سليمان قال :

إنَّا لعلى بعض طريق الحاجّ نقضي مناسك الحج ـ وفينا أبو هريرة ، وهو يومئذ من عمره في مطلع الفجر ، يُصليّ فكأنَّما يلهو ، ويدعو فكأنَّما يُغنّي ـ اذ مرّتْ بنا جنازة . فقمنا لها فإذا أبو هريرة قد أرسلَ ضحكةً آذن بها الناس جميعاً . فاخذْتُه من طرف ثوبه . فإذا هو لا يتمالك عنها ، فهي تهزّه هزّاً .

ولم يُتِمَّ الحج الا وهو كالساهي عمّا يفعل .

حدیث الشیطان

« ما من أحد إلا وله شيطان ...... »
(حديث نبوي)

حدث ابن مسلمة السعدي قال :

كان أبو هريرة كالماء يجري . لم نقِفْ له في حياته على وقفةٍ قط . كالمستعدِّ إلى الرحيل لا ينقضي عنه الرحيلُ .



حديث الحكمة

« اعلمْ أن اليقظة التي هي لنا بالحس هي النوم والحلم الذي لنا بالفعل هي اليقظة »
(أبو حيّان التوحيدي)

حدث أبو هريرة قال :

تهت في بعض حياتي وضللتُ السبيل . فكنت اضرب في الطرق تطرحني هذه إلى تلك ولا غايةٌ أطلُب ولا أملَ يُحْيي . وكان قد بدأني الشك فكنت أقبل على الشيء أو الامر فلا يملكني الا ساعة . ثم يغور همّي فيه وتنصرف نفسي إلى غيره . ثم آزداد فكنت لا أكاد أهُم بالشيء حتى يسقط همّي ، فكأنَّ العزم ذوْبٌ شتات لا يجتمع لي . إلى أن اصبحت اهُمّ بالشيء وعكسه والفعل والقعود عنه همّا واحدا ، وأشتهي لو اتفق لي النورُ والظلمة أو النوم واليقظة أو الشك

واليقين معاً . وبقيت كذلك اياما طوالا لا أعلم ما اصنع حتى كدت أجن . ثم مرت الايام فاستقرّ واستأنستُ . وقلت : ما الدنيا ما هي حتى تذهب انفاسُنا فيها ؟ وما الآخرة ما هي حتى تذهب فيها دنيانا ؟ ثم اعمل فلا يكون لانسٍ ولا الهٍ ولا جانٍ ولا يكون كفرا ولا ايمانا ولا صلاحا ولا فسادا . وقلت : لم يبق الا أن أطلب ذاتي مُطلقاً وما هيتي وأُعْرِض عن المحمول واللاّحق والعارض . وكذلك ذهبتْ ساعتي في ساعتي وعزمي في عزمي ؛ كالنور يأكل النور أو كالشمع يضيء فيحترق . حتى لقد ظننتُ أنّ الناس لا يجدون لي اثرًا اذا مُتّ . وألحّ عليّ داعي الاوساع الحاحًا ، واقتضاني الصفـاء .

* *

فلما تطهّرتُ أقبلتُ على البحرِ .

فهالني البحـرُ .

* *

واني لفوق البحر يوماً على جبل مشرف اذ جاء رجل كالناسك فجلس بقربي وهو مطرق ساكن كالبيت الحرام . فأقبلت عليه أتأمله فإذا هو في عظمة الفيل وعليه سمة الحكمة والجلال . وهو في ذلك كله لا يقول شيئاً . ومضت لنا ساعة ثم قلت : ان كنتَ ناسكاً فالسلام عليك . قال : لستُ . وعليك السلام . ما الذي لك في البحر؟قلت : شيءٌ من الروعة . قال : كذا عبيد الله جميعا ؛ على خسة البحر . انتزل فندخل الماء ؟ فنشطتُ وقام فسلك بي مُنحَدَرًا بين الصخور الهاوية كأنه السراط لم أر مثله منحدرا شديدا . ونزلنا إلى الماء فإذا الرجل يغوص فيسير في الماء غوْرًا فينساب على القعر كالثعبان ثم يطفو كالذكرى ؛ وشعرُ رأسه يسيل على وجهه . ثم يتوسّد الماء ويضطجع على جنبه

ويندفع يطوي الامواج طيا فهو أمهر مَنْ عرفْتُ سبْحَا . وأخذ من أمره مأخذه ثم عاد اليَّ فقال : ألك في أن أعلمك ؟ قلت : نعم . على قِصَر انفاسي وقلة بلائي في الماء . قال : لا بأس عليك من ذلك . ثم ضرب إلى عضدي وساعدي وقال : هذا محال ان يأخذه الشك . وكان يقول : السباحة ان تتوق إلى البحر وبتوق اليك . ثم لم يزل بي حتى علِمْتُ الماء كيف يُكثر القوة والنفس ويوقع في الاعضاء رقصا . وكنا نغوص فنسير معا فكأننا في سعة البحر .

فلا والله ما رأيتُ مثله مَذْهبةً للشلل .

والرجل في ذلك كله لا يحدثني بشيء من أمره ولا يخبرني بشأنه . حتى جاء الخريف وقد طابت لي صحبته .

* *

فلما أخرفنا سألته فقلت : ما خبرك وما شأنك على هذا البحر ؟ قال : شأنٌ كلا شأن . فيم السؤال ؟ إن السؤال من علل الانسان . أتحب القصص ؟ قلت : نعم . قال : وتفهمها ؟ قلت : لا ادري . قال : فهي قصة الحكمة . وانا قاصُّها عليك .

كانوا يسمّونني أبا رغال . أما الآن فلا اسم لي . قلت : مررت على قبر بالطائف يقال هو قبر أبي ثقيف أو أبي رغال . قال : نعم . هو قبري وقد مرّ عليه رسول الله . وكانوا يقولون : أنت سيدنا وخليفة الله فينا . فقلت : انهم جعلوني عليهم ملكاً مُطلَق الفعل . فاللهمّ أوْحِ اليَّ من روحك . وبقيت في انتظار الوحي فلم ينزل . وتعلّمْتُ الحكمة . قلت : ومن علمكها ؟ قال : امرأةٌ رأيتها في يوم شديد ذي مطر وريح وقد خرجَتْ إلى الهطل حتى امتلأت ، فشَعَرُهَا وثيابها

كأنهار عدن . وكانت تضحك كالمصابة العقل . وما كانت الا التي اهتدت إلى سبيل الحياة . وعلمنيها سكيرٌ يبكي في ليالي الشتاء . ويقول : هل من خلاصٍ من الحياة ؟ وكان لا يصحو ساعة الا ذلّ كآدم يوم أُهْبِط الارض . وعلمتني الكتبُ ما ليس من الحكمة . فلما تعلمْتُ الحكمة جُرْتُ فيهم فعَشَّرْتُهم وافترشْتُ نساءهم وسقيتُهم عَلْقَماً وخنقت عليهم حتى كانها نقمة من الله. قال أبو هريرة : فقلت ولِمَ فعلْتَ بهم هذا؟ قال : لان الوحي لم ينزل ولاني نظرته حتى طار لبّي . وكانوا يقولون : إنه لمجنون. وكنت أقول لِمَنْ يسألني في جوري ، ثم أضرب رأسه : إنّ قوماً يكون فيهم مثلي من الاشرار ولا يقتلونه أو يعقلون يديه ليسوا باهلٍ لشفقةٍ ولا رحمة . ثم قويتُ واشتد بأسي وقلت : لا حياة في غير الشدة والعنف . فامرْتُ فضربت اعناق المرضى والضعفاء كلهم والعمي والعرجى والمصابين جميعا . وظننت أني أصيب به صحّة . فلما

مثّلْتُ بهم فسجدوا مؤمنين خاشعين امسيْتُ فلم اصبح . وكانت مؤْتَنِي الاولى .

• •

وبقيت أياما بغار حراء فإذا جَوري قائمٌ فيّ يطلب أن يجور عليّ ، وخشيت أن اقتل نفسي ظلما . فقمت فنزلت اليهم .

• •

وجمعتُ حكماءهم وناديت في الملأ اني تُبْتُ وأرجو أنْ تُقْبَلَ التوبة وأنّهم يغفرون لي عسى الله يغفر . وقلت : نخرج الخير من الشر والشر من الخير ، أو نمحو الخير والشر معا . فاذا هُمْ عِقام . وقالوا : مننْتَ بحقن الدما واسكان الروع . وهو مردود عليك يوم الحساب . فقلت : دينكم كانكر صنيع اليهود ، حسابٌ في حساب . ثم امرْتُ فحلقْتُ لِحاهُم ورؤوسَهم حتى

صارت كالعُنْصل . وقدّمتُ لهم الخمر وقلت : خذوا من حكمتي . ففعلوا ثم خرجوا يسفُّون الارض سفًّا . فنظرتُ اليهم وتفلتُ . وجاءني قومي فقالوا : انك قاطع نعمتنا ومُلكنا علينا وإنّا نراهم قاتليك . قلت : لو فعلوه لشكرتهم واعظمتهم . ولكنهم لا يفعلون . إنّهم حَقَارةٌ نِسوَة .

ثم قلت: أجْعَلُ لهم اسبوعَ اباحةٍ فانظُر ما يصنعون وجعلت ذلك فناديت : إنا أبحنا لكم اعمالكم سبعة أيام بلياليها . فافعلوا ما تشاؤون . ثمّ نظرت فإذا هذا في أرضه يحرث وذلك مقبل على تجارته ومالة وآخر يقتل وينهب على عادته وسفك ، ورأيت الحكماء في حكمتهم يبيعون منها ويأكلون خبزا ، والمصلين في صلاتهم ، والاشرار في شرهم والاخيار في خيرهم . ولم أجد الا رجلا ضربت إلى البادية فإذا هو وحده . فقلت : هذا ضالّتي . واقبلت عليه اقبال الحفي المبتهج وسألته في أمره . فقال : أبحث عن نجم

سقط عني هنا ولعله غار في التراب . فهو مجنون هائم على وجهه . وعلمت ان لكلٍّ منهم محلّهُ من الحياة وحتى المجانين كمحلّ الكلمة من الاعراب : فكأن سيبويه مدبّر شأنهم . قال أبو هريرة : فقلت ومن هذا ؟ قال : رجل سيخلق ويبتكر النحو. ثم قال : ولم أزل كذلك حتى ذهب ايماني بالناس جميعا ومعاشرتهم وتقتُ إلى الوحدة الواحدة . وقلت : انه لا يحسن الفعل الا مطلقا محضاً . وليس الحبّ حبّا حتى تقتل من تحب وليس الخير خيرا حتى يتبدَّد في نفسه . ولم يبق بَعْدَهم الا برّي بأمي . وكانت شديدة الحب لي فانا أحبها لذلك . وكانت لا تُنكِر علي شيئا من أمري وتقول : أدعو الله ان تكون مُحقًّا فيما تفعل . فلمّا انْحصرت فيها جئتها فاردتها فكأنها لم تفهم . ولكنها ماتت في نفسي . فخرجت وقد مُتُّ موتتي الثانية .

فأنا هنا من يوم خروجي .

جئت هذا البحر وهاته الجبال التي لا ترَى فيها الا صخورا هاوية على صخور هاوية . وقلت : أكون أو لا أكون . وكانت قبلُ حياتي قبيحة شوهاء لاني لم أحذف زواياها ولم أهذّب الناتئ فيها ولم أنزع متناقضَها . فجُرْتُ حتى افنيتُ النّاسَ جميعا في نفسي وخلوت بها . فخلقْتُ لي سبيلا فأنا عليها ولا قافلةَ ولا رفيق . فكأني قد أضعتُ ظلي واستحال عليّ . ألم ترَ أنّي لا ظل لي . قال أبو هريرة فقلت : لم أروالله.

فقال : وقفت يوما فاذا هو قد تمادى في طريقه كالراحلة تعصيك وتطرحك وتسير ، أوكروح الميت . ثمّ جعل أبو رغال يضحك فيقهقه فأجد منه كالبرد . ثمّ سكت فقال : فلما ضاع ظلي جئت البحر وخلوت إلى الحكمة . وقلت : لا بد أن أخرج من تناقضي . فالروح والجسد كالحوت في الماء أو لا يكونان ويُهلك احدهما الآخر . ونظرت فلم أر كاتحاد الجسد والبحر

يتمالكان ويتغالبان ويتلاعبان ، فيحمل الجسدَ الماءُ ولا يمنُّ عليه ، لا كالروح تحمله وتمن عليه وتكرهه وتقضي عليه . وقلت : الحكمة الاعتدال . وقد تمّت لي . قال أبو هريرة فسألته : وما الاعتدال ؟ فقال : اعتدال الحوت أو الموت يا أبا هريرة . وانه ليس كالحركة الدائمة قاتل ولا كالسكون المحض سعادة وشفاء . فقلت : وما كان منه ؟ قال : اتريد أن ترى ؟ قلت : نعم . قال : هات يدك . ثم أخذني من يدي وذهب بي إلى صخور الجبل فقال : انظرها متدلّيةً في الجوِ لا تُشَدّ إلى شيء وقد غلبَت تجاذبَ الاجرام كما غلبْتُ الارضَ بالبحر . فنظرت فلم أر شيئا . فقلت : أنا لا أرى شيئا . قال : أنت أعمى يا هذا . أو لا ترى ما نحتُّ عليها من صور واشكال ؟ هي ما كان مُمْكنًا من الخلق ثم استحال . أنظر . هذا مخلوق تُحْبِله السماء ثم لا يكتفي فيحبل ويلد دونها . علة الخلق والولادة . علة الارض وبنيها . وهذا الا تراه ؟ انه جسد

ولا صورة وذات ولا صفات ، كأنه نجمٌ مات ولمّا ينقطعْ نورُه . هوأنت ، هوأنا ، مستحيلا . وهذا أيضا انظره في خشوعه كانه العين يغشاها القذى . انت حمارٌ ليسَتْ له اذنان . وانما أردت أن تعلم أنك انا وأنّي انت وأنّا غيرنا وأن الجنّة من نفسك كما كانت نفسك من تراب فصارت طائرا في السماء . وهاته كلها كالمخلوقات التي حبستها بغاري . اتريد أن تراها ؟ قال أبو هريرة : وكان في عينه وهو يقول كمثل نور النبي يُوحَى اليه ، فقلت : نعم ، وأنا لا اجرُؤ على الامتناع خشية جنونه . فذهب بي إلى كهفٍ في الجبل مُظلم ضيّقٍ كساعة شؤم . ووقف بي على بابه وقال : لقد جعلت بقصري هذا جماعة من الخدم والجواري الحسان لا آكل منهم أحدا . انما إذا نفدتْ روحي عمدتُ إلى احدهم فقتلتُه وتلطختُ بدمه فانا من خلق جديد . هذا طعام الروح . الا تنظر اليهم في أغلالهم كالأُسُد ؟ ثمّ تقدمنا قليلا فنظرت فإذا

جرادات كثيرة مشدودة بخيوط حمراء . فقلت : انها لبديعة الحسن . فجلس يمسح عليها ويقول : ان دماءهم منوطة بالفلكيات لا تقع للنفس الناطقة أو العقل الفعّال الاّ من نور الهيولى . ولو جاز تعدد العلل وانتفت الفاعلة والمادية والصورية والغائية لكان تعلق النفس بالجسد من تعلق الجرب بالشاة الجربة . لكن الواجب بذاته والواجب بغيره لا يلتقيان الا ويتناطحان . وهما لا يكافئان الواجب الوجود لما بينهما من فرق في التجريد والابداع والتدبير . وشرائط الامتناع كشرائط الامكان بابها واسع كالبحر . قال أبو هريرة : فقلت لقد مات موْتَه الآخرة . وقلت : نعم . هي احلامك كالسمك يُصاد فيُوكَل الشصُّ وتُفقد مصابيحُ دجلة والفرات . قلت ذلك مجاراة لجنونه وانطلقت اضحك وانطلق حتى استلقينا . ثم قال : انت مجنون . فارتعْتُ وانزعجْتُ حتى ارتعدتُ واهتززتُ وخفت أن يكون ذلك حقّ اليوم أو غد .

فلما خشيت على عقلي قلت : لم يبق الا أن أطلب النهاية .

وأردت الانصراف فقال : احب أن تصبر حتى أهديك شيئا . ثم غاب في الجبل فجاءني بقلم وقرطاس وقال : قد تحتاج اليها يوما فتجعل عليها خطوطا ودوائر ونُقَطا في وسطها بياض .

فأخذتُها وانصرفت مُظْلمَ العقل والقلب .

حديث الجمود

حدث أبو المدائن قال :

جئت ابا هريرة ليلـةً فاذا هـو في جمود الصخرة لا يشكو ولا يستطيع اليه سبيلا ولا يبكي . فقلت : أَوَكالرحى تدور على قلبها ولا طعام وترحي ؟ قال : انه يا أبا المدائن ليس في الناس الا ساهٍ عن اخيه. خرجت ليالي عدةً اهيم على وجهي وانا اتوسل إلى كل عابرٍ طريقٍ أُلقاه ان يلطمني لطمة تذهب بي فتحييني ، فلم يرحمني ولا ادركها مني احد . حتى ليستحيلُ عليَّ في النوم حلمي . فانا الليلة على ذلك.

ألا قُلْ ويلٌ للذين يموتون ثمّ لا يُبْعَثُون .

قال أبو المدائن : **وكان** ذلك في آخر ايامه .

حديث البعث الآخر

« ان دائي الصدى .... »

(بشار بن برد)

« الفولاذ يأبى السكون والسلام ، والنار »
« تأباه و « بروميثي » يأباه . لانه ما زال لعقل »
« الانسان درجات عدة لا بدّ له من ارتقائها »
« قبل ان يبلغ الذروة »

(بويسر)

حدث أبو المدائن قال :

جاءني رسولُ ابي هريرة يوماً يقول انه يدعوني لساعته . فاسرعت اليه وانا افكّر في ما عجل به إلى دعوتي واخاف ان يكون وقع به ما يُكْرَه . فلما دخلت عليه رايته جالسا وقد جعل بين يديه اوراقا واقبل عليها وهو مطرق ساكن كأنه النوءُ يتمخّض رعدا . وكان بيده قلم همَّ بالاوراق ثم توقَّفَ وقد ذهب حِمْلُه . فسلّمْتُ وجلست فإذا ابو هريرة قد القى القلم على القرطاس وصرف وجهَهُ اليّ فابتسم وقال : كم سنّك ؟ فضحكت وقلت : ألهذا دعوتني ؟ فقال

وحرّك راسَه : وددتُ والله لو أني خلوتُ عن العمر وأخذت سِنيَّ فزرعتها في ريح الصبا . ألك في يوم ليس من الدهر ؟ قلت : ومتى كان الدهر محدودا فنخرج عنه ؟ قال : لقد كان منذ اليوم . انظر هذا . واخذ ورقة والقاها إليّ . فإذا عليها خطوط قائمة ودوائرُ ونقطٌ سوداء تكبر وتصغر وفي وسط الورقة بياض ناصع . فقلت : أطلاسمٌ ام عبث ؟ قال : بل عنق الزمان وقد ضُرِب أو استفهامٌ ولا معنى . فلم افهم من كلامه شيئا . ولكني صبرت وقلت : وهذا اليوم ؟ صرفا للكلام عن غريباته . فقال : نعم . تاتيني غدا قبل الغروب وقد تطهّرتَ . قلت : افعل ان شاء الله . ثمّ قمت فسلمت ، وعاد إلى اوراقه ، وانصرفتُ وانا حيران .

* *

فلما كان الغد جئته في ساعته وانا طاهر كعادتي

قبيل الغروب . فإذا هو قد اسرج فرسين وقام يتوقّعني . فما كدت ادخل واسلّم حتى استوى على فرسه وهمزه ، فقامَ قيامَ النبل . فركبْتُ وشرعتُ اثره حتى لحقتُه . فقلت : اين بنا ؟ قال وضحك : إلى مغرب الشمس . انظر اليها وقد احمرّت وغربَتْ في عيني . والله لا آسف الا على مثلها من الدنيا . واشار اليها وهي على الجبل كالدم المُهْراق . فضقت بقوله وقلت : الا تنتهي ؟ إلى اين ؟ قال : لم أُردْ غير الفسحة والهواءُ يسْوَدُّ والسماء تلين . ما كان من امر الدنيا اليوم ؟ قلت : لم يكنْ ما يُذكَر . قال : ألم تكسبْ مالا ؟ قلت : بلى بعون الله ، كثيرا . فقال : اتعلم اني اشتريت لي ضيعةً اخرى ؟ قلت : على بركة الله . قال : نعم على بركة الله ... وأمّا الاولى فقد جعلت فيها من يُحبِّلها حتى تلد وكتبتُها لك . فرأيته مازحا وما كان كذلك الا في شطره . فقلت : الحمد لله أنْ عاد لك من التدبير ما قد يئستُ منه . وكان لم يكسبْ في

حياته مالا قط الا خرج عنه قبل الدخول . قال : لقد ذهبت لي اليوم فوق الاربعين من السنين وقد آن الرشد . اتذكر يوم التقينا عند حُبابة المغنية وقد دخلتُ عليكما كَرْها ؟ فقلت : وكنتَ في عربدةٍ لم ارمثلها قط . فقـال : واحببتُ ان نلتقي عليها فكرهتَ ذلك وأردتَ الباب ، فامسكتك عنوة ، وعلا صوتُها فلطمتُها لطمةً طوّحَتْها . ثم مزّقت ثيابها وحملتك عليها واخذت معك الفخذ والفم والعينين وجعلت لك الباقي وقلت : إفعل مثل فعلي . واقبلت على جسدها الاسمر اقبالَ المريدِ النهِش ، فصحت وارتعتَ صياحَ ربّات الحجال . قلت : نعم . وقد اراك فكأنه قد اصابك طائف من الجن . فتنهد وقال : وان كنت الا في ساعة حكمة . وقد هممت بلحمي مرارا بعدها اريد تمزيقه . اتعلم ما كان من امرها ؟ قلت : لم أعد اليها بعد يومنا ذاك ولم اطلب والله خبرها . فابتسم ابو هريرة وقال : لانك تزوجْتَ امرأتك بعدها

بايامٍ . لقد قتلتُها وقتلتُ كثيرا غيرها لئلا اقتل نفسي . وقد ذهب والله في الريح هباءً . قلت : انك لم تفعل هذا . قال : وقد فعلتُه . ثم سكتَ وسكتُّ وانا اراه يكذبني . ثم قال ، وقد نزل به من الفرح كنوبة الحُمّى : لقد خرجنا من الظلمات إلى النور . فقلت وانا انظر إلى الليل الغاشي : بل من نور النهار إلى ظلمات الليل . وعثر فرسي حتى كدت اقع على وجهي . فنظرت فاذا نحن قد وصلنا جبلاً حزيزا صَعُودا . فقلت : او تريد بنا شرّا ؟ قال : كلا . انما اطلب النهاية . وذهب صاعدا وذهبْتُ وانا لا اكاد ارى امامي شيئا لشدة الظلام . وانما كانت بالافق الغربي بقايا نور تائهةً كأنها الخير في قلب شيطان. وثقل عليّ السير مظلما فأردتُه على الرجوع فقـال وأبى : نحن إلى ذلك بعد ساعة . ثم ضحك وقال : الا تسمع ظريفةً تحمل عنك مشقةَ السير . قلت : هاتها . وكان عهدي به لطيفَ الظرف اذا اراده . قال :

أظلَمَتْ يوما فطلبت لعبة او عبثا أُفَرِّجُ به عنّي . فجمعت صحابةً لي على دعوة دعوتهم اليها . وكانوا كلهم من اهل الحكمة والادب لا يسكنون عن ذكر الآخرة ولا يتبعون الهوى ولا يشربون الا سترا . فلما حضروا ضربْتُ لهم ألوان الطعام والنبيذ الجيد . فجعلوا ينظرون إلى النبيذ ولا يجرؤون عليه وهم منكروه عليَّ . فقلت : كلكم يشرب فلا حياء في الجماعة . وكنت شربت مع كل واحد منهم على حدة وخلوة ، فاستبشروا وتضاحكوا وقال الواحد للآخر : وانت ايضا . ثم اكلوا وشربوا حتى انقلب كله فرحا . فلما اكتفوا واثنوا على طعامي وطابخته ونبيذي وساقيته. قلت : والذي ادّخرت لكم خير . فارتمت الانفس من العيون إلى ذخيرتي . فاشرت الى الجارية بشيء فقالت : نعم . وانفجرت ضحكا حتى كادت تكشف الامر كشفا وبصحو اصحابي . فزجرتُها فلوّتْ وخرجَتْ . ثم عادت واومأت أنْ قد تهيأ الأمر .

فأخذتُ اصحابي وهم كأنفاس الريحان وخرجت بهم إلى مجلس الغناء . فقالوا : اقينةٌ لا نعرفها ؟ قلت : نعم ، ولم تسمعوا والله مثلها . فصاحوا اعجابا . ودخلنا المجلس وقد ضُربَتْ فيه ستارة . فاجلستهم وقلت : الآن تسمعون . وضربت في يدي . فسمعوا من وراء الستارة صوتا وغناء وضربا روميًا لم يجيء بمثلها احد قط . ثم سكن الغناء وقامت اصوات اصحابي بالاعجاب . فقلت : الا تسمعون ؟ فسكتوا فاذا ببغاء من وراء الستارة يحكي كلامَهُم اقبح حكاية . فضحكوا فضحك الببغاء ضحكا مُشوَّهًا كريها . وتكلموا ثانية ففعل بهم مثل فعله الاول ، وانا إنظرهم وابتسم . حتى غضبوا فغضب الببّغاء وارادوا الانصراف فاراد ذلك . فضحكت والله حينئذ حتى استلقيت . ثم قلت : اصرفوا ملناس . وكان اسم الببغاء . فصرفوه وسكن الغضب والانصراف عن إصحابي . وقالوا : لنا عليك بعد هذه السخرية ان تسمعناها مرة ثانية .

يعنون القينة . فقلت : نعم . ثم صفقت بيدي
فصفّق الببغاء بجناحيه ، فسمعوا أحسنَ مما سمعوا
قبلا حتى ذهب بعقولهم وصاحوا كلهم : لقد أغنَتْ
غُنَّة عجيبة . تخرجها لنا فهي من بنات الجن او الجنّة .
قلت : بل من بنات الروم ، زرقاء العين صفراء الجلد
حمراء الشعر كانها الدنيا . فقاموا كلهم وصرخوا
كالواحد : تهبها لي ليلة . قلت : اما الآن فلا . ولكم
عليّ ذلك كل بدوره ، وأبدأ باكبركم سنًا . وانما
انتم الان ناظروها . ثم قمت فازحت الستارة فاذا
وراءها الببغاء في قفصه ، وجاريةٌ لي عجوزتحسن
الضربَ وليس انكر من صوتها وكانوا يعرفون ذلك منها؛
فقالوا : وأين روميتنا ؟ قلت : هي ذي . واشرت إلى
البيغاء . وكنت وقعتُ عليه عند تاجر اخذه من بلاد
الروم في بعض قوافله اليها ولم يقدُرْ له قدره فباعنيه ثمنا
بخسا ، على غريب ما كان يحسن من حكاية
الاصوات حاضرها وماضيها . فجعلت منه ملهاة في

تلك الليلة . فلما قلت ذلك شتمني اصحابي حتى
افحشوا وانصرفوا انصرافا لم يكن لهم بعده عود .
وبقيت اعتبر البيغاء .

* *

قال ابو المدائن :

فجعلت اضحك من قصته مع اصحابه حتى
كدت أقع ولم اتمالك عن ريح سمعها ابو هريرة.
فضحك وقال : انتقض وضوؤك وقد حانت الصلاة .
فخجلت وأمسكت عن الضحك وسكتنا جميعا .
ومضت لنا ساعة ثم اذا هاتف يهتف شعرا في صوت
ما سمعت أروع منه :

أنا الحق يناديك
أنا الحب يناغيك
أنا الشوق طغى فيك

تعالَ على الدّهـــرِ　　تَسامَ إلى سِحْـــري
فأكشفَ عن ستـــري　　ضيـاً كضيـا الفجــر

يُـروِّيك من ســرّي

أنا الحق طغى فيـك

أنا الحب يناغيـــك

أنـا الشـوق يناديـك

حبيبي حبيبَ الابدْ　　تخلّصْ وهيّـا نَـصِدْ

علـــومَ الغيـــب
خفـــايـــا الـــربِّ

وقُـــمْ كـالرماحْ　　اذا مـــا علَـــتْ
مَـهـبَّ الـريـــاحْ　　تُـعـالي الجبـــل
وطِـرْ يَـــا جنـــاحْ　　فها قــد بَــدَتْ
شـــواطي الأزَلْ

فاسمع أبا هريرة يغني وكأنه النار اتقدت او الله ينادي في الكون بالبعث :

أبـا حق لبّيك

تباركْتَ لبّيك

حبيبي جلالَيْك

أنا الآن اليـك

تــعــال فــؤادي ،

فهـــذي السمـــاء　　بـــاوج العـــلاء

لـروحـي تنـــادي ،

وهـــذا خليلـــي

يـــضيءُ سنـــاه　　ضيـــاء السمـــاء

بنيـــر سبيـــلي

ثم سكت فإذا انا اسمعه يقول : هذا ما كنتُ اطلب . اتذكر يا أبا المدائن يوم وقفتُ عليك بدكانك اشتري عنك شيئاً فجاءني من اخبرني بمريم وُلدتْ؟.. - يعني واحدته وقد ماتت صغيرة - ولم يكد يتم كلامه حتى حث فرسه وارسله كالريح ، فاسمعُ حوافره على الصخور كالرعد . وغاب عني في الليل . فلم تمض

هنيهة حتى سمعتُ صخورا هاوية وصهيلَ ألمٍ وصيحة كصيحة الفرح تملأ الوادي واقشعرّ لها جلدي ، فكان الامرَ مأدبة شياطين . ثم سكن كل شيء وناديت فلم يجبني احد . فلزمت مكاني إلى الصباح . فلما اصبحت نظرت فإذا أنا على قمة جبل يكاد يبلغ السماء ، واذا دم على الصخر ، واذا تحتي هاويةٌ يقصر عنها مدى العين .

رحم الله أبا هريرة . لقد كان أعظم من الحياة .

المراجع

1) **أدباؤنا بأقلامهم** (استجواب) : مجلة الندوة العدد 4 ـ 1956
خلاصة آراء المسعدي في الادب وتعريف مذهبه فيه .

2) **محمود المسعدي وكتابه السد** : تقديم نور الدين صمود . الدار التونسية للنشر ـ 1973
فصول وردود ومناقشات عدة حول المسرحية .

3) **الشاذلي القليبي** : مقدمة « للسد »
الطبعتان الاولى والثانية للنص.تحليل مدلولات المسرحية من وجهة نظر وطنية ملتزمة .

4) **محجوب بن ميلاد** : مقدمة « للسد »
الطبعتان الاولى والثانية للنص.دراسة فلسفية لمعاني المسرحية

5) **محمد فريد غازي** :
الادب التونسي المعاصر (بالفرنسية) مجلة (الشرق) 1959 .

6) **محمد اليعلاوي** : الشكل في « حدث أبو هريرة قال ... ».حوليات الجامعة التونسية ـ 1975
بحث في النواحي الاسلوبية من لغة الكاتب في هذه القصة .

7) **محمد رشاد الحمزاوي** : خواطر حول بعض الاحاديث من « حدث أبو هريرة قال ... ».مجلة « الفكر » جوان 1978
محاولة تحليل بعض المظاهر البنيوية في القصة .

8) **محمود طرشونة** : الادب المريد،في مؤلفات المسعدي . الدار التونسية للنشر ـ 1978
دراسة مواقف المسعدي من وجهة نظر فكرية واجتماعية .

الفهرس

صدر في سلسلة "عيون المعاصرة"

محمود المسعدي
حدث أبو هريرة قال
تقديم توفيق بكار

عز الدين المدني
من حكايات هذا الزمان
تقديم سمير العيادي

الطيب صالح
موسم الهجرة إلى الشمال
تقديم توفيق بكار

عبد الرحمن منيف
شرق المتوسط
تقديم حسين الواد

حنّا مينه
الياطر
تقديم رشيد الغزّي

مصطفى الفارسي وتيجاني زليلة
الطوفان
تقديم عبد الفتاح ابراهم

أميل حبيبي
المتشائل
تقديم توفيق بكار

عمر بن سالم
عشاروت
تقديم محمد رضا الكافي